مختارات من القصة العالمية

• أنطون تشيخوف

شـقاء !

الشفق يؤذن بإقتراب الليل، وندف كبيرة من الثلج تتساقط حول مصابيح الطريق، وقد أضاءت لتوها، وتكسو السطوح والقبعات وظهور الخيل وأكتاف الرجال بطبقة ناعمة رقيقة، والحوذى «إيونا بوقاف»، قد لفه الثلج، فتجمد فى مكانه فى العربة، أبيض كالشبح، وانكمش كأقصى ما يستطيع الجسم الإنسانى أن ينكمش، لا يفكر فى إزاحة الثلج عن جسده، حتى لو تساقط عليه منه تيار منتظم. وحصانه كذلك: أبيض وساكن، يبدو فى سكونه، وحدة خطوط جسمه، وقوائمه الرفيعة المشدودة تشبه العصا فى استقامتها، أشبه بعلبة الأطفال. وأغلب الظن أنه كان يتأمل ما حوله، وقد انتزع من الحرث، وألقى به وسط هذا الإعصار من الأنوار المخيفة، والضجيج المتواصل، وناس يتدافعون.

مضى وقت طويل دون أن يتحرك، خرجا إلى الشارع وقت العشاء، لكنه لم يربح شيئاً، ولم يدعه أحد من الزبائن، لم يجىء أحد بعد، بينما ظلام الليل يلف المدينة، ويتوهج ضوء المصابيح، وتشتد حركة الشارع. وفجأة سمع إيونا من يناديه:

– حوذى.... أوصلنى إلى فيبر جسكايا.

انتبه إيونا، ورأى من خلال عينين غطتهما ندف الثلج ضابطاً يرتدى معطفاً عسكريًا واقيا من المطر.

– إلى فيير جسكايا... هل أنت نائم؟... إلى فيير جسكايا.

شد إيونا الشكيمة موافقاً، فتطاير الثلج من على ظهر الحصان وكتفه، وأخذ الضابط مكانه من العربة، بينما أخذ الحوذى يعض لسانه، ويمد عنقه، كما لو كان أوزة، وارتج قليلا فى مقعده، وراح يلوح بسوطه، عادة لا ضرورة، فاشتد الحصان، ومد عنقه، وبدأت سيقانه الخشبية تتلوى. ومن بين كتل الظلام تتراقص أمام عينيه، سمع صوتاً يصيح به:

– إلى أين تتجه.... إلى أين أنت ذاهب بحق الشيطان... إلى أين تدفعك العفاريت؟.... الزم يمينك يا رجل.

وغضب الضابط:

– أنت لا تعرف القيادة... الزم يمينك !

ويلعنه سائق عربة أخرى، وينظر إليه أحد المشاة فى غضب، ويزيح الثلج عن كمه، وقد اصطدم ذراعه برأس الحصان وهو يعبر الطريق، وبدا إيونا فى مقعد السائق كما لو كان يجلس على حصيرة من الشوك، يرفع كتفيه، ويدير عينيه فى نظرات بلهاء، كما لو كان غائباً عن الوعى، لا يعرف أين هو، ولماذا وجد فى هذا المكان.

وقال الضابط متهكماً: أى ناس أشرار هم، إنهم يتعمدون ما وسعهم أن يصطدموا بعربتك، أو يقعوا تحت حوافر حصانك، يفعلون ذلك عمداً، كما لو كانوا على اتفاق.

ونظر إيونا إلى الراكب، وحرك شفتيه، كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن همهمة غامضة هى التى كانت تخرج من فيه فحسب.

وسأله الضابط: ماذا تقول؟

والتوى فم إيونا بابتسامة كئيبة، وشد عنقه، وبجهد راح يقول فى صوت خفيض:

– ابنى.... ابنى مات هذا الأسبوع يا سيدى !

– أوه... مات بماذا ؟

واستدار إيونا بكل جسمه إلى الراكب، وقال:

– لا أحد يدرى... من حمى على التأكيد، رقد ثلاثة أيام فى المستشفى وهناك مات، إنها إرادة الله.

وارتفع صوت فى الظلام: ابعد أيها الشيطان... لم جُعلت العينان أيها الكلب العجوز، إلى أين أنت متجه! وقال الضابط:

– أسرع... أسرع، لأننا على هذا النحو لن نصل هناك إلا صباح الغد.

عاد الحوذى يمد رقبته، ويرتج خفيفاً فى مقعده، ويقرقع سوطه بعنف، واستدار مرات وراءه ليرى الزبون، ولكن هذا أغمض عينيه، وبدا كأنه لا يرغب فى الاستماع إليه. وبعد أن أوصل إيونا راكبه إلى فيبر جسكايا توقف أمام حان، وانكمش فى مقعده من جديد، وتجمد ثانية، وبدأ الثلج يتساقط على كتفيه، وعلى الحصان، ومرت ساعة، وبعدها ساعة... ثم ظهر على الطوار ثلاثة شبان يتمايلون،

يرسلون ضجيجاً عاليا، بأحذيتهم الثقيلة، ونقاشهم الحاد، اثنان منهم طوال القامة، والثالث قصير أحدب، وصاح الأحدب: إلى كوبرى البوليس أيها السائق، سندفع لك نحن الثلاثة عشرين كوبيك.

وشد إيونا الشكيمة، وعض شفته، عشرون كوبيك ليست أجرة طيبة، ولكن سيان لديه روبيل أو خمسة كوبيك ما دام هناك زبائن، واقترب الشبان من العربة، وبين التدافع والشتائم وثبوا إليها وحاولوا أن يجلسوا جميعاً فى نفس الوقت، ولم يكن المقعد يتسع لغير اثنين، فبقى الأحدب واقفاً، وقال:

– هيًّا... ألهب الحصان. اندفع بقوة، أية عربة هذه التى لك يا صديقى، محال أن يوجد فى بطرسبرج أسوأ منها. وضحك إيونا: ها.. ها.. من ليست عنده غيرها !

– طيب.... أسرع، هل تريد أن نسير على هذا النحو كل الوقت؟... إذن تود أن أضربك على قفاك!. قال واحد من الثلاثة:

– إن الصداع يؤلمنى، شربت بالأمس أنا وفاسكا أربع زجاجات من الكونياك، فى منزل دوكما سوف.

رد الآخر بغضب:

– لا أرى ثمة ضرورة للكذب.... إنك تكذب بطريقة مخجلة!

– فليعافنى الله إذا لم يكن ذلك صحيحاً.

– إذا كانت القملة تعطس فما تقوله صحيح، وفتح إيونا فمه فى شبه ابتسامة وقال:

– ها... ها... أى مزاج رائق لدى السادة! وصاح الأحدب فى غضب:

– معك إلى جهنم... ألا تريد أن تسرع أيها العجوز القذر؟ ألهب ظهر حصانك... اضربه بالسوط... اضربه بقوة..

كان أيونا يحس بهياج الأحدب خلف ظهره، ويسمع السباب الذى يوجهه إليه، ثم رأى الناس، وأحس بالوحدة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً، على حين واصل الأحدب شتائمه، وصمت عنه ليضحك على فكاهة ألقاها أحد زملائه، واستمر يضحك حتى دهمه السعال، وأخذ زميلاه الطويلان يتحدثان عن فتاة اسمها ناديا بتروفنا، وينظر إيونا إليهم، وينتظر حتى تسود فترة صمت، ويلتفت إليهم من جديد، ويقول:

– هذا الأسبوع... فى هذا الأسبوع مات ابنى! وقال الأحدب وهو يجفف شفتيه من السعال:

– كلنا سنموت.... طيب، طيب، أسرع... لم أعد أحتمل أنا وأصدقائى هذا الزحف البطىء، متى ستصل ؟

– شجعه.. اصفعه على قفاه! أسمعت أيها العجوز القذر؟ سأصفعك، سأجعلك نشيطاً، لو احترم الإنسان مثلك فخير له أن يمشى على قدميه، أتسمعنى؟... أم لا تهتم بما يقال لك !

وسمع أيونا، أكثر مما أحس، بصفعة قوية على قفاه، ويضحك: ها. ها... أى شبان مرحون أنتم، ليمنحكم الله الصحة.

ويسأله أحد الشابين الطويلين :

– حوذى... هل أنت متزوج ؟

– من ؟.... أنا ؟.. ها.. ها.. أى مزاج رائق أنتم عليه.. الأرض الرطبة هى زوجتى الوحيدة الآن.. ها.. ها.. لقد مات ابنى، وما زلت أنا بعده حيًّا.. يا للغرابة ! لقد أخطأه الموت، أخذه وتركنى.

واستدار إيونا ليخبرهم كيف مات ابنه، ولكن الأحدب تنهد، وتنفس الصعداء، وأعلن: أخيراً وصلنا والحمد لله.

وبعد أن قبض إيونا أجرته ظل يحدّق طويلا فى الشبان الثلاثة، وهم يختفون فى ممر مظلم، وعاد من جديد لا يملك غير الصمت. داعب النوم جفونه خلال لحظات قصيرة، ثم عاد يمزق قبله على نحو أقسى مما كان من قبل، وبعينين مقروحتين أخذ يتأمل الجماهير غادية ورائحة على جانبى الطريق، ألا يجد بين هذه الألوف من البشر من يغيره سمعاً، ولكن الناس يمرون حوله ولا يشعرون بشقائه، شقاء عميق بلا نهاية، لو انفجر قلبه لأغرق الدنيا!

ويرى إيونا بواباً يحمل لفة، ويقترب منه شيئاً، ويتهيأ للحديث معه:

– كم الساعة الآن يا صديقى ؟

– الساعة قاربت العاشرة... لماذا توقفت هنا ؟.. ابتعد عن هذا المكان.

وابتعد إيونا بضع خطوات ثم انكمش جسمه، واستسلم للشقاء، بدا له من العبث أن يتجه إلى الناس، وقبل أن تنقضى خمس دقائق اعتدل فى جلسته، وهز رقبته، كما لو كان يشعر بألم حاد، وشد الشكيمة وهمس فى نفسه: إلى الإسطبل... إلى الإسطبل.

وانطلق حصانه مسرعاً كما لو كان يعرف أفكاره، وبعد ساعة ونصف جلس إيونا إلى جانب موقد قديم قذر، وعلى الأرض، وعلى مقاعد خشبية قديمة أناس يغطون فى النوم، والهواء خانق، ومليء بالروائح العفنة، ونظر إيونا إلى النائمين، وهرش فى جلده، وتحسر لأنه عاد إلى البيت مبكراً.

وقال فى نفسه: لم أكسب حتى ما يكفى للقرطم، وهذا على التأكيد مصدر حزنى، فعندما يؤدى المرء واجبه يأكل ما فيه الكفاية، ويأكل حصانه حاجته، ويشعر بالراحة. ونهض حوذى آخر فى ركن من الأركان، يغلب عليه النوم ويتجه إلى مكان المياه، وسأله إيونا:

-أعطشان أنت؟

– نعم... أريد أن أشرب.

– بالهناء والشفاء.. ولكن ابنى مات يا زميلى... كان لى ولد ومات.. أتسمعنى؟ مات هذا الأسبوع... فى المستشفى، إنه أمر غريب.

وأخذ إيونا يرقب الأثر الذى تركته كلماته، فلم يلحظ شيئاً، كان الشاب قد غطى رأسه واستغرق فى النوم.

وتنهد الرجل العجوز، وهرش فى جسمه، كان ظمئاً إلى الكلام، كعطش الشاب إلى الماء. أوشك أسبوع أن ينصرم منذ مات ابنه، وهو لم يتحدث إلى أحد بعد حديثاً حقيقيًّا، يريد أن يتحدث عنه حديثاً جديًّا وفى هدوء. أن يحكى كيف مرض ابنه وكيف تعذب، وماذا قال قبل أن يموت وكيف مات، وأن يصف جنازته، وكيف

ذهب إلى المستشفى لاستلام ملابسه. وما زالت لديه ابنته أنيسيا في الريف، وهو يريد أن يتحدث عن أنيسيا بدورها، نعم لديه الكثير مما يريد أن يقوله، وينبغي أن يتنهد، وأن يجد من يستمع إليه، وأن يعجب من الزمن وأن يأسى له، وسيكون من الخير أن يتحدث إلى النساء لأنهن ينهمرن بكاء مع الكلمة الأولى، برغم أنهن مخلوقات حمقاوات.

وقال إيونا لنفسه:

دعنا نخرج ونلقى نظرة على الحصان، وفى الوقت متسع دائماً للنوم، لا تخف ستنام بما فيه الكفاية.

ولبس إيونا معطفه وتوجه إلى الإسطبل، حيث حصانه، وبدأ يفكر فى القرطم وفى الدريس، وفى الجو، وفى ابنه... عندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر فيه. من الممكن أن يتحدث عنه إلى شخص ما، ولكن التفكير فيه وهو وحده، وتصوره، ألم مرعب لا يمكن لإنسان أن يتحمله.

وسأل الحصان، وهو يتأمل عينيه اللامعتين: ماذا تعمل؟.. هل تأكل؟... كل، كل... إن لم تربح ما يكفى لشراء القرطم فلتقنع بالدريس، نعم لقد أصبحت عجوزاً على قيادة العربات... كان ينبغى أن يكون ابنى الوحيد هو الذى يقود لا أنا... كان قائداً بمعنى الكلمة.... كان يجب أن يعيش، وسكت إيونا برهة، ثم تابع حديثه:

– هذه هى القضية يا حصانى العزيز... لقد ذهب ولدى، لم يعد هناك من يسمى «كوزما أيونتش»، قال لى وداعاً، ومات دون

سبب ما، والآن تصور أن لك مهرة صغيرة، وأنك والدها، فجأة ذهبت هذه المهرة وماتت، ألا تتأسف لموتها... أليس كذلك.

كان الحصان يعلك ويجتر وينخر فوق يدى سيده، وأخذت الحمية إيونا، فبدأ يحكى له القصة كاملة.

• جي دي موباسان

الحبـل

أقبل الفلاحون في «يوم السوق» مع زوجاتهم على الطرق الكثيرة المنتشرة حول بلدة «جودرفيل» قاصدين المدينة. وقد احتشد الجميع واختلطت القبعات العالية التي يلبسها الأغنياء منهم بقرون الماشيـة، وبما تحمله القرويات فـوق رؤوسهـن. وكـانت الأصوات المنبعثـة من هنا وهناك تثير ضجة متواصلة، كان يعلو فوقها بيـن حيـن آخـر خوار بقرة أو قهقهة مدويـة مـن ريفي قـوى الصدر.

وكان السيد «هوشكورن» - وهو مـن أهـالي بلـدة «بروتييـه» - في طريقه إلى الميدان عندما لمح على الأرض قطعة حبـل صغيـرة. وكان الرجل على جانب كبير من الحرص ككل نورماندى صميم، يرى أن كل ما يفيد يجب أن يلتقـط فقـد ينتفـع بـه، فـأحنى قامتـه في جهد ظاهر، على الرغم مما كـان يشكـوه مـن آلام الروماتيـزم، وأخذ يلف قطعة الحبل في تؤدة وعنايـة. ثـم وقعت عينـاه في تلك اللحظة على السيد «مالانـدان» صانـع السروج واقفـاً ببـاب حانوتـه وهو يحدجه بنظراته.

كان بيـن «مالانـدان» و «هـو شكـورن» خـلاف قديـم، إذ كـان الرجلان قد تنازعا ذات مرة من أجل رسن، ولأنهما كانـا حقوديـن فقد استحكمت العداوة بينهما منذ ذلك الحين. وأحس السيد «هـو شكورن» بشيء من الخجل حين رآه عدوه يأخذ قطعة مـن الحبـل

من الأرض الملوثة بالأقذار، فأسرع بإخفائها تحت سترته، ثم دسها في جيب «بنطلونه»، وأخذ يتظاهر بأنه لايزال يبحث في الأرض عن شيء لم يعثر عليه بعد. ومضت لحظة قصد بعدها إلى السوق، ورأسه إلى الأمام وظهره مقوس من الألم، وسرعان ما غاب في الجمع الصاخب المحتشد، وشغلته مناقشات ومساومات لا تكاد تنتهي!

وكان الفلاحون يفحصون الأبقار، وينصرفون عنها، ثم يرتدون إليها وقد استولت عليهم الحيرة، وامتلأت نفوسهم بالخوف من أن يصيبهم الغبن، فكانوا نهباً للتردد لا يجسرون على البت في الأمر، يرقبون الباعة، ويحاولون جهدهم أن يهتدوا إلى حيلهم أو إلى عيب فيما يريدون شراءه من الدواب. وكانت النساء قد وضعن ما يحملن من السلال الكبيرة عند أقدامهن، وأخرجن الدجاج وألقينه على الأرض، موثوق الأرجل، قرمزى الأعراف، يطل الفزع من عيونه.

وكان طلاب الدجاج يعرضون على الفلاحات أثماناً بخسة فيأبين إلا ما ذكرن لهم من أثمان، وقد شاعت في ملامحهن الصلابة، وبدت وجوههن خالية من كل انفعال. وقد يحدث فجأة أن تقبل إحداهن الخفض المقترح، فتصيح بطالب الشراء، الذى يكون قد هم بالانصراف على مهل: «حسنا يا سيد أنتيم».. سأعطيك إياه بما ذكرت.

ثم أخذ الميدان يخلو شيئاً فشيئاً، ودق ناقوس الظهر، فذهب الذين قدموا منهم من أماكن بعيدة إلى حانات البلدة ومطاعمها.

* * *

وكانت صالة الطعام الكبيرة فى مطعم «جوردان» غاصة بالناس، كما كان الفناء الرحب يزخر بالمركبات من كل نوع، وقد استقر لونها من تلوثها بالأقذار، وبدا بعضها و «عريشه» مرفوع إلى السماء كالذراعين، وبعضها الآخر قد استقر عريشه على الأرض. وكان بالمطعم موقد كبير، قد استعرت ناره وانبعث منها الدفء فى ظهور الجالسين حوله. وكانت هناك ثلاثة سفافيد تدور على الحاضرين مثقلة بالدجاج والحمام وأفخاذ الضأن، بينما كانت الرائحة الشهية المنبعثة من المرق والشواء فوق الموقد تداعب الأنوف، فتضاعف المرح وسال اللعاب، وقد جلس رواد المطعم ينتظرون الأطباق الشهية التى كانت لا تنفك تقبل عليهم مملوءة وترتد عنهم فارغة، وهم يتبادلون الحديث بصوت مرتفع، أو يتحدث الواحد منهم إلى رفيقه أو جاره عن شئونه وعما اشترى وباع.

وفجأة، سُمعت دقات طبل صادرة من الفناء، فأسرع من فى المطعم إلى النوافذ والأبواب، وأفواههم ممتلئة، والفوط ما زالت بأيديهم، ولم يبق فى مكانه إلا قليل منهم لم يعنوا بالأمر. وبعد أن انتهى منادى البلدة من دق طبلته، أخذ يتلو ما يلى بصوت خشن النبرات:

«على الجميع أن يعلموا أنه فقدت صباح اليوم على طريق «بوزفيل» فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، محفظة جيب من الجلد، سوداء اللون، بها خمسمائة فرنك وبعض الأوراق. فعلى من يجدها أن يسارع إلى ردها دون إبطاء إلى مكتب العمدة، أو إلى السيد «هولبريك» من أهالى مانفيل، ولمن يفعل ذلك جائزة قدرها عشرون فرنكاً».

وما كاد المنادى يفرغ من تلاوة هذا البلاغ حتى انصرف من الفناء، ثم سمع دق الطبل مرة أخرى صادراً من بعيد، وكان صوت المنادى أقل قوة ووضوحاً فى هذه المرة.

وما إن تلاشى الصوت حتى شرع الناس يتكلمون عن الحادث، ويتساءلون هل يرجى أو لا يرجى أن يسترد السيد «هو لبريك» محفظته المفقودة، وكادوا يفرغون من تناول القهوة، عندما ظهر البوليس بباب المطعم وقال يسألهم: «هل السيد «هوشكورن» من أهالى «برتيبه» هنا ؟».

وكان «هوشكورن» فى تلك اللحظة جالساً عند الطرف الآخر من المائدة، فقال ردًّا على سؤال الضابط: «نعم... أنا هنا» فعاد الضابط يقول: «هل لك أن تتفضل يا سيدى «هوشكورن» فترافقنى إلى مكتب العمدة ؟ إنه يريد أن يتحدث إليك». فاستولى على الرجل مزيج من الدهشة والقلق، وشرب ما فى كأسه الصغيرة من الخمر دفعة واحدة، ثم نهض واتجه نحو الباب، وهو أشد انحناء مما كان فى الصباح، إذ كانت الخطوات الأولى التى تعقب كل راحة شاقة بالنسبة إليه بوجه خاص، وكان يردد قائلا وهو يمشى: «هأنذا.. هأنذا !».

* * *

وكان العمدة هو مسجل العقود أيضاً فى هذه الناحية، وهو رجل ضخم الجسم يدل مظهره على الجد، وتنطق عباراته بالمهابة، وقد جلس فى مقعده الوثير فى انتظار قدوم السيد «هوشكورن»، فلما دخل عليه هذا الأخير ابتدره قائلا:

– إنك شوهدت فى هذا الصباح يا سيد «هوشكورن» وأنت تلتقط – على طريق «بوزفيل» – المحفظة التى فقدها السيد «هولبريك» من أهالى بلدة مانفيل...

فذهل الرجل، وشخص ببصره إلى العمدة، وقد أفزعته الشبهة التى اتجهت إليه فجأة وعلى غير انتظار، دون أن يعرف سبباً لذلك. ومرت لحظة من الصمت الرهيب قبل أن يقول بصوت مبحوح:

– أنا ؟!.. أنا التقطت محفظة ؟!

– نعم. أنت نفسك.

– أقسم لك بشرفى أنى لا أعلم شيئاً عن ذلك !

– ولكنك شوهدت !

– أنا شوهدت يا سيدى العمدة ؟ أنا ؟ من ذا الذى يقول إنه رآنى ؟

– السيد «مالاندان» صانع السروج.

وما كاد الرجل يسمع هذا من العمدة حتى تذكر حادث الصباح، وأدرك كل شىء، فصاح قائلا وقد احمر وجهه من الغضب:

– آه !. رآنى ألتقط هذا الحبل. انظر، هذا هو يا سيدى العمدة !

ودس الرجل يده فى جيبه، وبحث فيها لحظة، ثم أخرج منها قطعة الحبل. غير أن العمدة لم يصدق كلامه وإنما هز رأسه وهو يقول:

– إنك لن تجعلنى أصدق يا سيد «هوشكورن» أن السيد «مالاندان» وهو رجل جدير بالثقة، قد حسب أن هذا الحبل محفظة!

فرفع الرجل يده وهو يكاد يتمزق من الغيظ، وقال فى صوت متهدج النبرات:

– هذه هى الحقيقة، علم الله، يا سيدى العمدة. وأنا أكررها، والله على ما أقول شهيد !

فاستأنف العمدة كلامه قائلا :

– وبعد أن التقطت ما وجدت، لبثت لحظة طويلة تبحث فى الوحل، لترى ما إذا كانت أية قطعة من النقود قد سقطت من المحفظة !

وما إن وصل العمدة فى حديثه إلى هذا الحد، حتى كاد الرجل يختنق من الغيظ والخوف، وقال فى اضطراب بالغ:

– كيف يستطيع امرؤ أن يقول... مثل هذه الأكاذيب لتسئ إلى سمعة رجل شريف ؟

كيف يستطيع امرؤ أن يقول...

غير أن احتجاجات السيد «هوشكورن» قد ذهبت كلها هباء، ولم يصدق كلامه أحد. وواجهه العمدة بالسيد «مالاندان» فأعاد ما سبق أن قاله من قبل، وتبادل الرجلان الشتائم بعض الوقت، ثم طلب السيد «هوشكورن» أن يفتشوه فلم يجدوا معه شيئاً.

واستبدت الحيرة بالعمدة أخيراً، فصرف الرجل من عنده بعد أن أنذره بأنه سوف يستشير وكيل النيابة فيما يجب إتخاذه من إجراءات.

* * *

وذاع الخبر فى أرجاء المدينة، فلم يكد الرجل يغادر مكتب العمدة حتى أقبل الناس عليه وأحاطوا به من كل جانب، ثم أخذوا يلحون عليه بسيل من أسئلتهم المستطلعة، جادين أو ساخرين، فأنشأ يقص عليهم قصة الجبل، فما صدقه أحد منهم، وإنما ضحك منه الجميع مستهزئين!

ومضى السيد «هوشكورن» فى طريقه، وجعل يستوقف كل من يصادفه من أصدقائه ومعارفه، ويقص عليهم القصة فى حديث طويل لا نهاية له، ويروى على أسماعهم ما ساقه من الاحتجاجات، وهو يقلب جيوبه أمامهم بطناً لظهر، كى يبرهن لهم على أنها خالية تماماً، فكانوا لا يصدقونه، ويقولون له: «اذهب أيها الماكر!» فأغضبه ذلك، واشتد غيظه وتضاعف حزنه. وأحس بأن قلبه يوشك أن ينفجر! ولم يدر ماذا يفعل.

وأقبل الليل، وكان على «هوشكورن» أن يعود إلى «برتييه»، فسار فى طريقه إليها مع ثلاثة من جيرانه، فأراهم المكان الذى كان قد التقط فيه قطعة الحبل، ولم يتحدث بغير ذلك طول الطريق. وفى اليوم التالى، قام بجولة فى أرجاء بلدة «برتييه» ليقص على أهلها قصته، ولكن ما من أحد صدق روايته، فما إن جن عليه الليل حتى كان المرض قد ألم به.

وفى نحو الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى، أعاد المحفظة بما فيها «ماريوس بوميل» – وهو أجير عند السيد «بريتون» المزارع ببلدة «إيموفبيل» – إلى السيد «هولبريك» زاعماً أنه وجدها فى الطريق. ولما كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة، فقد حملها معه إلى البيت وأعطاها لسيده.

وذاع الخبر فى الناحية حتى بلغ السيد «هوشكورن»، فبدأ الطواف من فوره، وأخذ يعيد سرد قصته التى كتب له فيها النصر. وكان يقول: «إن ما ساءنى وآلمنى لم يكن اتهامى زوراً بالسرقة، وإنما كان الكذب، فليس ثمة ما هو أسوأ من أن يتهم المرء كذباً!».

وهكذا ظل «هوشكورن» يلهج بالحادث طول يومه، فكان يقصه على المارة فى الطريق، وعلى رواد الحانة، والخارجين من الكنيسة فى يوم الأحد التالى، بل لقد كان يستوقف الغرباء ليحدثهم به. وهدأت نفسه أخيراً، لكن شيئاً ما ظل مع ذلك يشغل باله ويضايقه، شيئاً غامضاً كان يحسه، ولكنه لا يدرى ما هو على التحديد!

فقد كان يبدو له أن الناس كأنهم يمزحون وهم ينصتون إليه، ولم يكن فى مظهرهم ما يدل على أنهم مقتنعون بما يقول، بل لقد كان يخيل إليه أنهم كانوا يتهامسون بشىء فيما بينهم إذا ما أدار لهم ظهره!

وفى يوم الثلاثاء من الأسبوع التالى، توجه «هوشكورن» إلى السوق فى «جودرفيل»، يدفعه شعوره بضرورة سرد موضوعه، وكان «مالاندان» واقفاً ببابه عندما مر به «هوشكورن»، فما إن وقع بصره على هذا الأخير حتى أخذ يضحك!... واقترب من فلاح من قرية «كريكتو»، فلم يدعه هذا يتم حديثه، وإنما غمزه بإبهامه فى بطنه وهو يقول له فى وجهه: «اذهب، اذهب أيها الماكر الكبير!» ثم استدار على عقبيه ومضى فى سبيله!

واستبدت الحيرة بالسيد «هوشكورن»، واستولى عليه مزيد من القلق وهو يفكر فى الأمر. فلماذا يقولون له أنه ماكر كبير!..

* * *

ولم يكد المسكين يجلس إلى المائدة بمطعم «جوردان» حتى شرع يشرح الأمر لمن حوله، فقال له أحد تجار الخيل:

– مهلا، مهلا أيها النشال القديم! هذه حيلة عتيقة، وأنا أعرف كل شيء عن قطعة الحبل هذه !!

– ولكن المحفظة قد وجدت وأعيدت إلى صاحبها ؟!.

فعاد التاجر يقول فى صوت لنبراته مغزى خاص:

– صمتاً، صمتاً يا والدى. إن هناك واحداً يجد الشيء، وهناك آخر يبلغ، فهذا شيء من السهل تدبيره. أليس كذلك ؟

فانتفض «هوشكورن» واقفاً وهو يوشك أن يختنق من الغيظ، وقد أدرك من فوره كل شيء، إذ فهم أنهم يتهمونه بأنه دفع بالمحفظة إلى شريك له ليردها إلى صاحبها! فحاول أن يتنصل من هذه التهمة الباطلة، ولكن الناس من حوله بدءوا يضحكون !

ولم يستطيع المسكين أن يتم طعامه فبادر بالانصراف من المطعم، مشيعاً بإيماءات الهزء وضحكات السخرية، وعاد إلى بيته وقد استبد به الحزن والغضب وعصفت بفؤاده الحيرة. وزاده أسفاً وكآبة علمه بأنه كان، بفضل دهائه النورماندى الأصيل، قادراً على ما اتهموه به، بل على أكثر منه!... وبدا له أنه قد أصبح من المحال الآن بالنسبة له أن يثبت براءته، نظراً لأن دهاءه معروف للجميع، فأخذته رجفة قاسية، واعتصر قلبه ما فى التهمة من ظلم غاشم !

وهكذا أخذ «هوشكورن» يروى الحادث مرة بعد مرة، ويزيد فى كل يوم إسهاباً فيه ويصطنع أسباباً جديدة يضيفها إلى حججه

السابقة، ويقسم إيماناً أخرى غليظة. واستغرقت قصة الحبل كل تفكيره واهتمامه، غير أن تكذيب الناس له يشتد كلما أفاض فى الدفاع عن نفسه!

وأحس المسكين بهذا كله، واشتدت وطأته عليه، وأخذ الغيظ والغم ينهشان قلبه، ومع هذا فقد استمر فى إضناء نفسه على غير طائل، حتى هزل وذوى تحت سمع الناس وبصرهم. وأخذ العابثون والماجنون يدعونه إلى أن يقص عليهم قصة الحبل، لا لشىء إلا ليلهوا بها ويسلوا أنفسهم، حتى إذا ما فعل عادوا يطلبون إليه أن يعيد عليهم القصص، تماماً كما يطلبون إلى الجندى أن يحدثهم عن المعارك التى خاض غمارها، فضعف عقله من فرط تأثره، وما إن أشرف شهر ديسمبر على نهايته حتى اختلط عقله واشتد به المرض فلزم الفراش.

مات «هوشكورن» فى أوائل شهر يناير، وسُمع، وهو فى سكرة الموت وساعة الاحتضار، يهذى ببراءته ويكرر قائلا بصوت كأنه آت من عالم آخر: «قطعة حبل!.. قطعة حبل!.. أنظر، هذه هى يا سيدى العمدة!».

• روبين داريّو

ملك برجوازى

السماء مكفهرة والهواء ثائر، والنهار حزين، فتعال معى يا صاحبى نستروح طرائف هذه القصة علّها تنسينا بواعث تلك الكآبة القلقة..

* * *

كان فى مدينة عظيمة شهيرة ملك قوى قادر يملك ثياباً غالية عجيبة، وجوارى عاريات، بيضاوات وسوداوات، وأسلحة براقة، وكلاباً سلوقية سريعة العدو،وقناصين ذوى أبواق نحاسية تملأ الفضاء بدويها.

أكان هذا الملك شاعراً ؟

لا يا صديقى: كان ملكا برجوازيًّا !

* * *

كان العاهل مغرماً بالفنون، يغدق على أهل الطرب، والمداحين والرسامين والنحاتين والصيادلة، والحجامين ومعلمى السياقة.

وعندما يذهب إلى الغابة يأمر الفحول من بلغائه أن يرتجلوا القصائد فى تمجيده وهو إلى جانب ظبى دام، أو خنزير جبلى جريح، بينما يسكب السقاة فى الأقداح نبيذاً ذهبيًّا فواراً وتصفق القيان راقصات.. وإذا ضجر من المدينة الهادرة فذهب إلى الصيد، ضاقت الغابة بالعجيج

والضجيج من مواكبه، وخرجت الطيور مذعورة من أعشاشها، وتردد صدى الجلبة فى أعماق الكهوف، وحطمت الكلاب فى عدوها العوسج بأرجلها المرنة وانحنى القناصون على رقاب الخيل، وجوههم ملتهبة، وشعرهم مرسل للريح.

وكان للملك قصر فاخر، ادخر فيه أموالاً طائلة، وتحفاً عجيبة، يصل إليه خلال أحواض من الزئبق، وبرك واسعة وخدم وحاشية قد طأطأت أعناقهم تأدباً..

* * *

وكان يصعد إليه فى سلالم تحفها أعمدة رخامية ناصعة البياض، وأخرى مرصعة بالزمرد على جانبيها أسود من مرمر. وتحيط بالقصر حديقة غناء، يذهب إليها ليشرح صدره، متصفحاً قصة جميلة أو يقرأ فى كتاب عن النحو أو النقد الخفيف أو يتحدث إلى من حوله مدافعاً بكل قواه عن المجمع اللغوى وآرائه عن صحة الألفاظ وسلامة اللغة ونقاء الأسلوب فى الفن الأدبى. إن له نفساً رفيعة تحب الصفاء وإلتزام قواعد الإملاء.

* * *

وثمة تحف صينية ويابانية للزينة فحسب وحيوانات نحاسية متخيلة، فواغر الأفواه، ملتوية الأذناب، فى مجموعات هائلة عجيبة، وأشجار مبتدعة من خشب اللك، تزينها أوراق وأغصان وأزهار وحيوانات من فصائل مجهولة، وفراشات على الجدر غريبة الأجنحة، وأسماك وديوك ملونة، ومساخر جهنمية التعبير، ذات عيون حية، وسيوف نصالها عتاق، وقوائمها حيوانات خيالية تأكل نوار اللوتس

وأصونة دقيقة فيها حلل من سندس رقيق كأنها نسجت من خيوط العنكبوت، وأباريق من قيشاني شرقي عريق، عليها رسوم لجنود من تتار يرتدون جلوداً سابغة، وفي أيديهم قسي متحفزة، وعلى ظهورهم جعاب مليئة بالسهام.

وثمة قاعة إغريقية حافلة بتماثيل المرمر من الآلهة وربات الفنون وعرائس البحر والرعاة، وأخرى من العصر الرومانسي فيها لوحات لفاتو العظيم وشردين، وثانية وثالثة ورابعة، فكم من القاعات يملك!

وكان العاهل يطوف بكل ذلك، ووجهه يفيض بشراً، وكرشه يهتز في سعادة وعلى رأسه كما لو كان واحداً من ملوك «الورق» الأربعة !

وذات يوم جيء له في قاعة العرش بصنف غريب من الناس، والحاشية تحف به، وأساتذة البلاغة والسياقة والرقص من حوله. وسأل الملك:

– ترى ما هذا ؟

– إنه شاعر يا سيدي.

كان الملك يملك أسراباً من الإوز يسبح في البرك، وأخرى من الكناري والكروان تغرد في الحديقة، أما الشاعر فكان شيئاً جديداً غريباً.

– دعوه هنا..

وقال الشاعر:

– سيدي أنا لم آكل بعد.

ورد الملك:

– تكلم، وستأكل.

وابتدأ الشاعر:

– سيدى من زمن وأنا أغنى أناشيد المستقبل، ولدت فى السحر ونشرت جناحى فى العاصفة، وأبحث عن الإنسان المختار، الذى يجب أن ينتظر بزوغ الشمس العظمى، الأناشيد فى فمه والمعزف بين يديه، هجرت إلهام المدينة الوخيمة والمخدع الناضح بالعطور، وربات الشعر من البشر تملأ النفس ضآلة والوجوه غباراً، حطمت قيثارتى المنافقة ذات الأوتار الخانعة، على أكواب بوهيميا وأباريق يفيض فيها نبيذ مسكر، ورميت الحلة التى جعلتنى شبيهاً بالمهرج.. ولبست أردية وحشية خشنة، وذهبت إلى الغابة، وعشت هناك، فتقويت من الحليب المغذى، ومن نبيذ الحياة الجديدة، ورحلت إلى سواحل البحر الصخرية، وهززت رأسى فى العاصفة القوية السوداء كأننى ملاك او إله أوليمبى.

حنوت على الطبيعة العظيمة، وفتشت عن حرارة المثل العليا، وعن شعر يوجد فى كوكب فى أعماق السماء وفى لؤلؤة فى قاع المحيط، أردت أن أكون قويًا فلقد أزفت ساعة الثورات العظيمة كأنها المسيح كله نور، وكله حركة وقوة، فلنستقبل روحها بقصيدة تكون لها قوس نصر، أبياتها من فولاذ ومن ذهب ومن حب!

سيدى!. الفن لا يوجد فى تمثال بارد من مرمر ولا فى اللوحات الزاهية، كلاولا فى السيد أونيت العظيم، الفن يا سيدى لا يلبس «بنطلوناً» وليس كلامه برجوازيًا، ولا يضع النقط على كل الحروف،

إنه جليل، قد يرتدى حللا من ذهب أو لهب أو يمشى عاريا، يعجن ألوانه بالعرق، ويرسم موضوعاته بالنور، وهو عريض الثراء، يضرب بأجنحته كالنسر، أو ببرائنه كالأسد.

يالضيعة الشعر!

كيف تبتذل القوافى فتتغنى بخال امرأة، ويسف الشعر فيصبح نفاقاً أجوف، وينقد الإسكافى قصائدى، ويجرؤ أستاذ الصيدلة فيضع نقطاً وفواصل لإلهامى، وتسمح لهم أنت بكل ذلك يا سيدى!

المثل الأعلى.. المثل الأعلى!

وقاطعه الملك:

– سمعت، فما العمل ؟

أجاب وتفلسف: إذا سمحت له يا سيدى يمكن أن يربح شيئاً يسد رمقه، نعطيه صندوقاً موسيقيًّا ونضعه فى الحديقة إلى جانب الإوز، فتنعم برؤيته فى سويعات نزهتك.

والتفت الملك إلى الشاعر: نعم، ستأخذ هذا الصندوق، وتغلق فاك، وتدير يده، فيعزف أنواعاً مختلفة من الموسيقى الراقصة، هذا إن لم تفضل أن تموت جوعاً، كل فاصل موسيقى بقطعة خبز، لا شيء من الكلام الفارغ أو من المثل العليا، تعال..

ومن ذلك اليوم، كان الشاعر الجوعان يُرى على حافة بركة الإوز، يحرك يد الصندوق خجلا من التفاتات الشمس الكبيرة، وكلما مر به الملك، أو أحب أن يملأ معدته، ازداد صوت الآلة رنيناً، يصنع ذلك أمام سخرية العصافير الحرة جاءت تمتص الندى

من الزنابق المزدهرة، ومن حوله يئز النحل، فيلسع وجهه، وتمتلىء عيناه دموعاً.. دموعاً مرة.. تتدحرج على خديه، ثم تستلقى على الأرض السمراء !

* * *

وأتى الشتاء، فأحس المسكين برودة فى جسده وفى روحه، تجمد فكره، وتنوسيت أناشيده العظيمة، ولم يعد شاعر الجبل المتوج بالنسور.. لم يعد غير مسكين فقير، يحرك يد صندوق الموسيقى..

وعندما تساقط الثلج نسيه الملك ورعاياه وتركه للزمهرير يعض لحمه ويجلد وجهه بينما ألقى على العصافير أرْدية تقيها.

وذات ليلة، تساقط ثلج متبلور، وفى القصر وليمة، وأنوار الثريات تضحك مبتهجة فوق المرمر والذهب وحلل القادة الصينيين المرسومة على القيشانى العتيق وصفق الندامى فى طرب مجنون: «فى صحة السيد أستاذ البلاغة!..» وتعالت قهقهات ثملة هاذية بأوزان الشعربينما الشمبانيا تفور فى الأقداح البلورية، وتزيد فى رغوة مضيئة عجلة. يا لها من ليلة شتاء.. ليلة أعياد.

وكان ذلك البائس المغطى بالثلج إلى جانب بركة الإوز، يرتعد متجمداً من البرد، صريع الزمهرير، يحرك يد الصندوق ليستدفىء فى الليلة المظلمة، فيتردد صدى تلك الموسيقى المجنونة بين الأشجار العارية، ومات وهو يفكر: إن الشمس ستشرق غداً، ومعها المثل الأعلى، وإن الفن لا يلبس «بنطلوناً» بل حلة من لهيب مذهب!

وفى اليوم التالى جاء الملك وصحبه فوجدوا الشاعر المسكين كعصفور قتله الثلج، على شفته ابتسامة مرة، ويده لما تزل متشبثة بمحرك الصندوق..!

* * *

آه يا صديقى !

السماء مكفهرة، والهواء ثائر، والنهار حزين، وكآبة باهتة تطوف بالأفق.

ولكن، كم يدفىء أرواحنا – فى هذا الوجود الكئيب – جملة طيبة، مع مصافحة حارة من يد صديق :

إلى اللقاء !

[قصة إسبانية – من أمريكا اللاتينية]

رجل يعرف كل شيء

لست أدرى كيف حدث هذا على وجه التحديد، ولكنه كان مقدراً لى أن أمقت هذا الذى يدعى «ماكس كلادا» قبل أن أعرفه! وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، وقد اضطربت حركة السفر بالسفن عابرات المحيط اضطراباً شديداً، حتى أنه لم يكن يسع المسافر إلا أن يقبل أى مكان يخصص له، ولو كان مكاناً ضيقاً على ظهر الباخرة !

لهذا شكرت الظروف التى مكنتنى من الوصول إلى «كابين» ذى سريرين ولما قيل لى ان اسم زميلى فى «الكابين» هو «ماكس كلادا» أخذ قلبى يدق بسرعة إذ قضيت أربعة عشر يوماً فى البحر بين «سان فرنسيسكو» و «يوكوهاما» وأنا فى صحبة زميل واحد طوال الوقت، خاصة وأنه يدعى «ماكس كلادا»؟!. لا شك أننى كنت أكون أقل امتعاضاً وتبرماً لو كان لرفيقى هذا اسم طريف «كسميث أو براين» مثلا !

* * *

وما كدت أصل إلى السفينة حتى تبين لى أن أمتعة «مستر كلادا» قد سبقتنى إلى «الكابين»، وقد كرهت لأول وهلة شكل أمتعته، وتلك الحقائب الضخمة التى كانت تعلوها بطاقات كثيرة تحمل أسماء أكبر فنادق العالم، وكان الرجل قد أخرج منها كل أدوات

الزينة، ورصها منسقة على الرف الزجاجي الذى يعلو حوض الغسيل، فتركت حقائبى بالكابين، ثم قصدت إلى غرفة التدخين بالباخرة، وطلبت إلى الغلام أن يحضر لى بعض أوراق اللعب، فلما جاءنى بها أخذت أقتل الوقت بلعبة «الصبر». ولم تكد تنقضى لحظة حتى اقترب منى رجل نادانى باسمى، ثم خاطبنى قائلا وعلى شفتيه ابتسامة لا تحمل أى معنى:

– أنا أدعى «كلادا».. «ماكس كلادا».

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، كان قد استقر فى المقعد المقابل! فقلت له فى غير اهتمام :

– أظن أننا شريكان فى «كابين» واحد ؟

– هو ذاك. الواقع أن المرء لا يستطيع أن يعرف فى هذه الأيام من ذا الذى سيكون رفيقه فى السفر، غير أننى سررت كثيراً عندما عرفت أنك إنجليزى، فمن الخير لنا نحن الإنجليز أن نعيش متلازمين، حينما نكون على سفر خارج بلادنا.

– وهل أنت إنجليزى ؟

– أحسب أنك تظننى أمريكيًا. أليس كذلك؟ أؤكد لك أننى إنجليزى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى!

ولكى يثبت لى «مستر كلادا» شخصيته الإنجليزية، أخرج جواز سفره من جيبه بحركة سريعة، وقربه كثيراً من عينى حتى كاد يلامس طرف أنفى. وكان الرجل قصير القامة، أسود الشعر، تعلو وجهه سمرة خفيفة. وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبأسلوب سليم،

ولباقة جمة متكلفة.. كان كل هذا يؤكد لى أنى لو فحصت هذا الجواز الذى كان يقدمه إلى بعناية لأدركت أنه قد وُلد بأرض سماؤها صافية، تبعد كثيراً عن إنجلترا ذاتها. ومرت لحظة من الصمت بددها الرجل بقوله:

– ماذا تشرب ؟

فنظرت إليه وقد تملكتنى دهشة بالغة، فقد كانت الأوامر بمنع تقديم الخمر فى السفن الأمريكية لا تزال قائمة، وكانت كل الدلائل تدل على ان السفينة لا تحمل أى نوع من الخمور.. غير أن مستر «كلادا» لم ينتظر حتى أجيب، وإنما أضاف قائلا على الفور:

– «ويسكى» بالصودا ؟.. أم مارتينى ؟ ما عليك إلا أن تذكر الاسم فحسب.

وأخرج زجاجة صغيرة من كل جيب من جيوبه، ثم نادى الساقى، وطلب إليه أن يحضر كأسين وبعض الثلج، ثم قال لى بلهجة الواثق المطمئن:

– لا تهتم بالشراب، فلدى منه الكثير، وإن كان لك أصدقاء فى هذه السفينة فأبلغهم أن رفيقك فى السفر لديه كافة أنواع الخمور المعروفة فى العالم.

* * *

والحق أن زميلى كان ثرثاراً، فقد تحدث عن «نيويورك» و «سان فرنسيسكو»، كما تحدث عن أفلام السينما ونقد المسرحيات، ثم أفاض فى كلامه عن السياسة وعن الحرب. وكنت قد أزحت ورق اللعب جانباً عندما جلس الرجل أمامى، غير أنه لما بدا حديثه الذى

لا يكاد ينتهى، وجدت نفسى أعود بحركة آلية إلى أوراقى أنسقها من جديد. ومرت لحظات وأنا على هذه الحال، وفجأة، سمعت مستر «كلادا» يقول:

– كلا، كلا. الأفضل أن تضع الثلاثة فوق الأربعة !

والواقع أنه ليس ثمة ما هو أكثر إزعاجا للمرء من أن يحدثه إنسان بما يجب عليه أن يفعل وهو يلعب لعبة «الصبر». ولهذا، فقد نحيت أوراق اللعب مرة أخرى، وفى عزمى ألا أعود إليها إلا بعد انصراف هذا الزميل الفضولى الثرثار. ولكن، لشد ما أدهشنى أنه أمسك بالورق وهو يقول:

– أتحب أن ترى بعض ألعاب الورق السحرية ؟

فأجبته قائلا وقد تملكنى الغيظ:

– كلا، فأنا أكرهها !

– بل سأريك واحدة منها، ولا شك فى أنها ستعجبك.

وسرعان ما قرن القول بالعمل، فأرانى ثلاثاً منها فى سرعة البرق! ولما قلت له إنى ذاهب إلى غرفة الطعام لأنتقى مقعداً مناسباً لى، صاح قائلا فى حماس ظاهر:

– لا داعى لأن تتعب نفسك فقد اخترت لك بنفسى مقعداً، وبما أننا نقيم فى «كابين» واحد، فمن الطبيعى إذن أن نجلس معاً إلى مائدة واحدة.

وكرهت مستر «كلادا» أكثر من ذى قبل. ذلك أنى لم أكن أشاركه «كابيناً» واحداً أو أتناول طعامى إلى جانبه ثلاث مرات

فحسب بل الواقع أني كنت لا أستطيع أن أجول على ظهر الباخرة دون أن يكون ملازماً لي، إلى حد أني اقتنعت أخيراً بأن الإفلات منه أمر محال، وكان أكثر من ذلك استحالة أن تقنعه بأنه شخص غير مرغوب فيه.. فقد كان يثق أتم الوثوق من أنك تسر لرؤيته، تماماً كما يسر هو لرؤيتك، ولو أنه زارك في بيتك فأغلقت الباب من دونه وقذفت به إلى أسفل السلم لما خطر بباله قط مع ذلك أنه زائر ثقيل غير مرغوب فيه!

وكان «ماكس كلادا» يتعرف إلى الناس في سهولة بالغة، فلم تكد تنقضي ثلاثة أيام على رحيل السفينة، حتى كان قد عرف كل من فيها، وكان يشرف على سباق الخيل الخشبية، ويسحب أوراق «اليانصيب»، ويجمع النقود للجوائز المالية، وينظم حفلات الرقص التنكرية، وينسق البرامج لفرقة موسيقا السفينة. كان في كل مكان، وكان يقوم بكل عمل، وكان إلى جانب هذا أول المكروهين في هذا العالم الصغير الذي تعتبر السفينة حدوده.

وقد أطلقنا نحن المسافرين على مستر كلادا اسم «الرجل الذي يعرف كل شيء» وصرنا نناديه بهذا الاسم، فلم يكن يغضب لذلك، بل إنه كان يجد فيه نوعاً من الإطراء لشخصه، والثناء عليه! وكان الرجل أثقل ما يكون ظلا في أوقات تناول الطعام، إذ كنا جميعاً تحت رحمته في هذا الوقت بالذات،فهو يناقش كل إنسان، ويتحدث في كل موضوع، ويعرف ما لا يعرفه سواه، ولا يدع شيئاً مهما كان تافهاً صغيراً إلا وجادل فيه، ثم لا يكف عن الجدل بعد ذلك إلا بعد أن ترى نفسك مضطراً إلى التسليم بما يقول !

كان يجلس معنا إلى المائدة، التى كان يتصدرها طبيب السفينة بصفة دائمة، رجل شبيه بمستر «كلاداه» فى كثرة الجدل اسمه «رمزاى»، وهو أمريكى ضخم الجسم، يعمل فى السلك السياسى، قنصلا لبلاده فى «كوبا». وقد عرفنا أنه كان عائداً إلى مقر عمله، بعد عطلة قصيرة قضاها فى نيويورك، ليحضر زوجته التى كانت قد قضت بها أكثر من عام فى زيارة لأسرتها.

وكانت زوجة مستر «رمزاى» سيدة جميلة صغيرة الجسم، على قدر كبير من روح المرح والدعابة، وتلبس دائماً ثيابا بسيطة، فالخدمة فى السلك القنصلى لا توفر للقائم بها عادة أجراً كبيراً، ومع ذلك فقد كانت لهذه السيدة على بساطة ملبسها صورة تستوقف النظر، لا أعرف كيف أعبر عنها بالكلمات، فهى لا تتميز عن أية امرأة أخرى متوسطة الجمال، وقد تمر بعشرات مثلها فى كل وقت فى طريقك، غير أنها كانت مع ذلك تشع بهاء وفتنة، كوردة ساحرة فى معطفها القاتم اللون.

* * *

وذات يوم، وكنا جلوساً إلى مائدة الغداء كالعادة، تطرق الحديث مصادفة إلى موضوع الحلى والجواهر وكانت الصحف قد نشرت مقالا طويلا عن صناعة الجواهر الزائفة فى اليابان وعن إتقان اليابانيين لهذه الصناعة. وقد عقب طبيب السفينة على هذا الحديث بقوله إن صناعة الجواهر الزائفة قد أصابت من النجاح ما هو خليق بأن يقلل من قيمة الجواهر الحقيقية. فاندفع مستر «كلاداه» عندئذ يجادل ويناقش على عادته، وما كنت أظن

أن مستر «رمزاى» القنصل يمكن أن يكون هو الآخر خبيراً بشئون الجواهر الصحيحة والزائفة، غير أنه لم يستطع أن يقاوم عادته فتدخل بدوره فى المناقشة بحماس ظاهر. وهكذا احتدمت بين الرجلين معركة كلامية حامية الوطيس. ولعل القنصل قد قال شيئاً ضاق به صدر مستر «كلاداه» لأن هذا الأخير ضرب المائدة بقبضة يده ليؤكد كلامه، وهو يقول بصوت عال :

– إنى أعرف ما أقول، وأنا فى طريقى إلى اليابان خصيصاً لبحث صناعة الجواهر الزائفة، ولا يوجد فى العالم كله من يعرف هذا الموضوع مثلى، أو يقول لكم إن «ماكس كلاداه» ليس حجة فيه. إنى أعرف أيها الأصدقاء تاريخ كل جوهرة ثمينة فى العالم.

وكان هذا الحديث جديداً بالنسبى إلينا عن حقيقة عمل «الرجل الذى يعرف كل شىء»، إذ لم يسبق له أن ذكر لنا أى شىء عن عمله، وإن كنا قد عرفنا أنه ذاهب إلى اليابان فى مهمة تجارية.

ودار «كلاداه» بعينيه يتفحص وجوه الحاضرين، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة، ومضت لحظة صمت ثم أضاف يقول:

– يتحدث السيد «الدكتور» عن أن صناعة الجواهر الزائفة سوف تؤثر فى قيمة الجواهر الحقيقية، ولكنى أستطيع أن أؤكد لكم العكس..

وصمت لحظة قصيرة كأنما يريد أن يتبين وقع كلامه فى نفوس الحاضرين، ثم استطرد يقول :

– وأؤكد لك يا مسز «رمزاى» أن هذه الجواهر التى فى عنقك لن تفقد مليماً واحداً من الثمن الذى دفعته فيها.

وما إن سمعت «مسز رمزاى» عبارته الأخيرة حتى انتفضت انتفاضة مفاجئة، وسرعان ما تمالكت نفسها وأمسكت بالسلسلة فى بساطة ووضعتها فى صدرها تحت الثوب فى أمان، وكأنها تشعر بقلق شديد من ناحيتها !!

ومال مستر «رمزاى» قليلا إلى الأمام بعد أن أغمض إحدى عينيه، وغمز لنا بطريقة ذات مغزى خاص:

– إن هذه السلسلة التى تلبسها زوجتى جميلة ولا شك يا مستر «كلادا».

– نعم، وقد عرفتها من أول نظرة، فهى من أحسن أنواع الماس.

فهز مستر «رمزاى» كتفيه العريضتين وهو يقول:

– الواقع أنى لم أدفع فيها شيئاً ويهمنى أن أعرف ثمنها !

فظهرت إمارات الاهتمام على وجه مستر «كلادا»، وقال بلهجة من يدلى بنبأ بالغ الخطر:

– أؤكد لك أن ثمنها لا يقل بحال من الأحوال عن خمسة عشرة ألف دولار، وإن كان من اشتراها قد ابتاعها من «الشارع الخامس»، فلا يدهشنى أن يكون الثمن قد ارتفع إلى ثلاثين ألفاً !

وارتسمت على شفتى القنصل ابتسامة ساخرة وهو يقول:

– قد تكون مفاجأة لك يا عزيزى مستر «كلادا» أن تعلم أن زوجتى قد ابتاعت هذه الحلية من أحد المحال التجارية بثمانية عشر دولاراً فقط يوم أن غادرنا «نيويورك»!

فانتفض مستر «كلادا» فى مقعده كمن لدغه عقرب، وصرخ قائلا بصوت تفيض نبراته بالمعارضة والاحتجاج:

– كلا، أبداً. هذا غير ممكن. إنك تسخر منى يا مستر «رمزاى»!

– أتراهننى ؟ أتراهن بمائة دولار على أنها جواهر زائفة ؟

– نعم، أراهنك !

وهنا تدخلت «مسز رمزاى» فى المناقشة التى قامت بين الرجلين، فقالت تخاطب زوجها فى صوت هادىء النبرات:

– ولكنك لن تراهن يا عزيزى على شىء تعرف أنت حقيقته من قبل، وإلا... فإن مستر «كلادا» يكون مغبونا فى هذا الرهان!!

– كيف تتاح لى فرصة سانحة للحصول على مائة دولار من أسهل طريق ثم أتركها تمر دون أن أغتنمها؟ لا شك فى أننى لو فعلت ذلك لكنت غبيًّا أحمق!

– ولكن، كيف يمكنك أن تثبت ما تقول، وليس معى ما يدل على الثمن الذى دفعته؟ أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون مسألة أقوال فحسب!

– لست أريد إثباتاً من أى نوع، وكل ما أطلبه هو أن أفحص هذه الماسات، وسوف أخبركم بسرعة عن حقيقة أمرها، حتى لو خسرت الرهان، فإنى رجل شريف.

فأسرع مستر «رمزاى» يقول لزوجته:

– انزعيها إذن من صدرك يا عزيزتى، واتركيها لمستر «كلادا» ليفحصها كما يشاء.

فترددت الزوجة لحظة قصيرة، ثم أمسكت القفل الخلفى للسلسلة بأناملها الدقيقة. ومضت لحظة قصيرة، ثم أسقطت يديها إلى جانبيها وهى تقول:

– لست مستطيعة أن أفتح هذا القفل، وآمل أن يكون مستر «كلادا» على ثقة مما أقول.

وخطر لى فى تلك اللحظة ان مأساة توشك أن تقع، وأخذت أدعو الله فى سرى أن تتوقف المناقشة عند هذا الحد، غير أن القنصل قفز من مقعده فجأة وهو يقول:

– لا بأس. أستطيع أنا أن أفتحه بنفسى.

وقرن القول بالعمل، فمد يديه إلى عنق زوجته وسرعان ما انتزع السلسلة الماسية التى تزينه، وقدمها إلى مستر «كلادا» الذى أخذ منظاراً مكبراً، وأخذ يفحص الماسات فى صمت، وفجأة، بدت على وجهه علامات الانتصار، وأعاد الحلية إلى «مسز رمزاى»، وقد بدا عليه أنه يهم بأن يقول شيئاً... ولكن نظره وقع على وجه الزوجة مصادفة فى تلك اللحظة، فلاحظ أنه قد صار أبيض كالثلج، وبدا له كأنها توشك أن تفقد الوعى!.. كانت تنظر إلى وجهه بعينين يطل منهما الفزع وتنطقان بالتوسل والرجاء، وكأنها تتوسل

إليه ألا يتكلم. والحق أنى دهشت شخصيًا لأن زوجها نفسه لم يلحظ شيئاً من هذا كله مع أنه كان ظاهراً للعيان!

وأطبق مستر «كلاداه» فمه ولزم الصمت، وبدا لى لحظتها أنه يبذل جهداً كبيراً ليسيطر على أعصابه. وران الصمت على الحاضرين لحظة، وأخيراً قال مستر «كلاداه»:

– إننى آسف فقد أخطأت! إذ الواقع أنها ماسات زيفت بمهارة فائقة، وأعتقد أن ثمانية عشر دولاراً تعتبر ثمناً مناسباً لا غبن فيه.

ثم أخرج مستر «كلاداه» من حافظة نقوده ورقة من فئة المائة دولار، وقدمها إلى المستر «رمزاى» معتذراً عن الجدل الذى أثاره. ومضت لحظة صمت قصيرة قال بعدها القنصل وهو يدس ورقة النقد فى حافظة نقوده:

– أعتقد يا صديقى العزيز أن هذه الدرس يكفى، فلا تجادل مرة أخرى فيما ليس لك به علم.

وشعرت فى تلك اللحظة بأن مستر «كلاداه» كان يعانى موقفاً لا يحسد عليه، إذ لاحظت أن يديه كانتا ترتعدان. غير أنه جاهد كى يتمالك زمام نفسه ولم يعقب بكلمة واحدة.

* * *

وانتشرت القصة بسرعة البرق فى كل أنحاء السفينة. وكانت أضحوكة طريفة حقًا أن الرجل الذى يعرف كل شىء قد أخطأه التوفيق فى أمر يزعم أنه حجة فيه. ومن الغريب أن «مسز رمزاى» قد لزمت «كابينها» عقب هذا الحادث فلم تبرحها طوال المساء،

بل إنها لم تشاهد وقت العشاء فى غرفة الطعام ولم تحضر السهرة التى أعقبته بحجة أنها مصابة بصداع شديد !!

* * *

واستيقظت مبكراً فى صباح اليوم التالى، ووقفت أحلق لحيتى أمام المرآة، وكان مستر «كلاداه» لا يزال مستلقيًا فى فراشه يدخن سجائره، وفجأة، رأيت خطاباً صغير الحجم يدفع من تحت الباب، فقرأت على غلافه هذه الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة: «إلى مستر ماكس كلاداه». وفتحت الباب بسرعة لأعرف من يكون مرسل الخطاب، أو حامله على الأقل، غير أنى وجدت أن الممر الضيق كان خاليًا تماماً !

وناولت الخطاب إلى «مستر كلاداه»، وكان لا يزال مستلقيا فى الفراش. ومرت لحظة قصيرة أحسست بعدها بأنه يمزق قطعة من الورق، وعندما أدرت وجهى نحوه، مد يده إلى بقطع صغيرة ممزقة من الورق وهو يقول:

– هلا قذفت بهذه القصاصات من الكوة إلى البحر الواسع؟

ولما أجبته إلى طلبه واستدرت نحوه ثانية، طالعتنى ابتسامة ساخرة كانت قد ارتسمت على شفتيه، ومرت لحظة صمت قصيرة قبل أن يقول:

-ليس من السهل على المرء أن يدعى الجهل !

فقلت له فى لهجة شاع فى نبراتها مزيد من اللهفة والفضول:

– وهل كانت الماسات حقيقية ؟

ولم يجب الرجل الذى يعرف كل شىء عن سؤالى مباشرة، وإنما نظر فى عينى طويلا ثم قال:

– لو كانت لى زوجة صغيرة جميلة لما تركتها تقضى فى «نيويورك» عاماً بأكمله بينما أكون أن فى «كوبا»! إذ لا شك فى أنها ستكون عندئذ معرضة لإغراء الهدايا الغالية الثمن!

وشعرت فى تلك اللحظة شعوراً واضحاً بأننى أصبحت لا أكره مستر «كلاداه»، الذى كان مشغولا بإعادة ورقة نقد من فئة المائة دولار إلى حافظة نقوده !!

• بيو باروخا

الخـــــان

عندما تسافر فى قطار خلال مقاطعات الشمال من إسبانيا ترى بعض البيوتات المظلمة، فى مفترق طريق ضخم موحش، إلى جانب قرية معتمة.

وربما لاحظت أن أمام البيت تقف عربة ركاب تجرها خيول، وأن بابه مفتوح مضاء، وأن السقيفة عريضة، لها طابع حانوت أو خان.

وربما توهمت، على حق، أن هذا البيت هو خان القرية، فانبثق فى أعماق روحك أشفاق ما، على أولئكم الغلابا من الناس ممن يعيشون هناك فى ذلك المكان المنعزل.

ويخرج أصحاب الخان إلى الطريق يرقبون القطار، ويرونه وهم حزانى يمرق، فيلوحون له بمناديلهم.

وبين الذين ظلوا والذين رحلوا، يبدو أن الآخرين هم أكثر حظًا، الذين مروا سراعاً، وربما كان الذين تخلوا هم الأكثر سعادة.

هؤلاء الذين يجرون هاربين ليذوبوا سريعا فى إعصار المدينة لا يعرفون خانات مقاطعات البشكنس، الخانات الأكثر قرى، الألطف معاملة فى الدنيا.

أنتم الذين طفتم العالم على أقدامكم، أنتم أيها المتسولون الباعة الجوالون، السريحة، المشعبذون أنتم أيها المطرودون، ممن لا وطن

لكم سوى ما تطئون، أنتم الأذلاء، ليس لكم من مال سوى ما تحملون فوق ظهوركم، أنتم المتشردون الرحل ليس لديكم ما تحبون إلا جمال الحقل والحرية، أجيبونى: أليس حقًا ما أكدته؟. قولوا لى فى صراحة: أليس صدقاً أن خانات مقاطعتى هى الأكثر حلاوة، الأنقى صفاء فى هذا العالم، وأنها خير ما فى الدنيا ؟

نعم. يوجد بينها ما هو حزين كئيب، وسط حقول خربة قاحلة، ومناظر ككابوس تعس، لكن الأغلبية بهجة مبتسمة، تبدو نوافذها كما لو كانت تنظر إليكم فى حنان!!

هؤلاء التعساء الذين يعبرون مهرولين فى هذا القطار الأسود، عبر الطريق دون أن يعرفوه، الذاهبون لكى يذوبوا فى أعصار المدن الكبرى، لا يشعرون بذلك الإحساس الأكثر فتنة، الأعمق لذة فى الحياة، الوصول إلى خان، بعد رحلة طويلة، فى عربة تجرها خيول. أوه!

لذة ؟!.. إنها الكلمة الوحيدة التى تتسع لهذه اللحظة، لقد أمضيتم ساعات فى العربة، الدنيا تمطر، والجو الأشهب يلف أرض الشتاء العارية، الطريق ملىء بالبرك ذات المياه المصفرة تمتد وسط الضباب على طول تقدم العربة، خلال صفوف من الشجر عارية من الورق، وعلى ضفاف النهر المعكر من الفيضان، إلى جانب سفح الجبل المملوء بالأحراش والشوك الجاف.

ويخيم عليكم سبات عميق من البرد، ولقد فكرتم فى عدة مواقف غريبة لكى تناموا قليلا، لكنكم لم تبلغوه، بينما رنين أجراس الخيل الرتيب يرن فى آذانكم متتابعاً، وما هناك من وسيلة أبداً، لكى تغفلوا عن البرد والجوع والتبلد!

وإن المرء ليتصور أن الرحلة لن تنتهى أبداً، وأن الجبال والعزب والشلالات وبعض البيوتات المنعزلة فى مفترق الطرق، والتى ترى من خلال زجاج النوافذ المضمخ بالبخار، تبدو لنا، قد تركناها وراءنا، كأنها ترافق العربة فى سيرها.

وتصل إلى قرية، فتبدأ عجلات العربة تتنطط فى ثقل، على قارعة طريق حافل بالمطبات، ويسأل واحد مطل من النافذة: أترانا وصلنا؟.. ولكن الحوذى لا ينزل، وإنما يلقى حزمة من الرسائل لرجل، ثم يسلم سلة لامرأة ويعود سوطه يفرقع من جديد، ومرة أخرى تبدأ العجلة تتعثر فى حصى الطريق، إلى أن تصل إلى آخر غاص بالبرك فتتدحرج فى سلاسة.

وبعد كثير من الضجر، عندما يبدأ النوم يداعب أجفانكم، وتبدءون فى التفكير جديًّا: أن هذه الرحلة قد لا تنتهى أبداً، إذا بالعربة تتوقف، وإذا بالحوذى يثب من مقعده إلى قارعة الطريق.

لقد وصلنا..

وينزل المرء من العربة مطحوناً منحنياً، لا يكاد يستطيع أن يمسك بالحقيبة بين أصابعه.

ويدخل إلى الخان..

– تفضل، من هنا.. من هنا، سوف نرسل ذلك كله إلى غرفتك، يأخذون منك المعطف ويحملون لك الرحال، ويسألونك عما إذا كنت تريد ان تستدفىء فى المطبخ، وتدخل فيه فيبدأ الدخان يقرص عينيك منذ اللحظة الأولى.

ويقولون لك: إنها المدخنة، هى تالفة غير صالحة، كما أن الريح شديدة. ولكن، من يهتم بذلك !

وعندما ترى العجوز أنك تتكلم البشكنسية تفسح لك فى لطف عظيم مكاناً إلى جانب النار، وبينما يعدون لك العشاء، تشوى قدميك، وتحكى لك هذه العجوز ذات الأنف الأقنى، ومنديل يلف رأسها، قصة تافهة من أيام شبابها، عندما كنت تخدم راهب القرية، منذ أكثر من خمسين عاماً خلت وتضحك من ذكرياتها، فتبدو لثتها عارية من الأسنان، كما لو كانت لثة أطفال.

وخلال ذلك كله تنتقل سيدة البيت من مكان إلى آخر، ويلعب صاحبه عشرة ورق مع ثلاثة آخرين، وقد جلسوا إلى منضدة تعادل فى ارتفاعها نفس المقاعد التى يجلسون عليها. ويمسك الأربعة بالورق فى جد وصرامة، وقد اتسخ بعضه، وتحرتف البعض الآخر، وتتابع أصوات: «ارم...» «كمان..» فى رنين رتيب، ويزداد عدد حبات الفاصوليا البيضاء والحمراء لدى الفريقين المتنافسين.

وعند النار تجد مضحك القرية، مهنته الكسل وشاعر الكنيسة ومغنيها، يكاد يعيش على الصدقات التى يتلقاها فى الخان، يتحدث مع قناص سمك، قناص غير صياد، كما تعود هو أن يؤكد، لأنه يقتل السمك بطلقات نارية من بندقيته، ثم يخوضان معاً حديثاً طويلاً غريباً عن عادات السلمون وكلب البحر والخنزير البرى والقنفذ.

وتسأل صاحبة البيت، وقد فهمت أنك شخصية هامة، سمساراً تجاريًّا على الأقل، سيدى... ستتعشى هنا أو فى صالة الطعام ؟

– هنا... هنا.

ويضعون مائدة صغيرة، ذات فراش أبيض، ويأتى العشاء، تخدمكم بنت اسمها «مارتثيلينيا» وينادونها «إيناسى»، فتاة لعوب فتية.

وتأكلون الطعام، تغمسون الخبز فى الصلصة، من غير أناقة دوق من سان جرمان على الإطلاق، وتأكلون فى نفس القدر، أمر ربما لا يجرى فى البيوت الأرستقراطية.

تأكلون كل شىء، وتشربون أكثر مما يجب قليلا، وبينما تسقيكم «مارتثيلينيا» من النبيذ الطيب تداعبونها: أنت جميلة، وأنت.. وتضحك هى فى ابتسامة بهجة بيضاء، حين ترى عيونكم الملتهبة، وأنوفكم المحمرة.

ثم تصعد بعد العشاء إلى الطابق الرئيسى، لتنام فى غرفة صغيرة، يكاد يشغلها كلها سرير هائل من الخشب، عليه أربع حشيات أو خمس، وعدد آخر من البطاطين، وعندما تتسلق هذا البرج، وتلتف داخل الملايات التى تعبق برائحة العشب، تسمع ضجيج المطر على السطح، والريح التى تصر، فيلين قلبك، وتكاد عيناك تمتلئان بالدموع، وتؤمن أكثر من أى وقت مضى بأنه يوجد هناك، فى أعلى، أب طيب، ليس له من شاغل غير أن يضع أسرة رغيدة فى خانات الطرق، وأن يقدم عشاء لذيذاً للمسافرين الغلابا.

[قصة إسبانية]

الرسالة المزيفة

(قصة بوليسية)

رفع المحامى نظارته إلى عينيه واعتدل فى جلسته وسعل سعالا خفيفاً. ثم قال فى صوت هو مزيج من الجفاء ومن العطف معاً :

– أجد لزاماً على أن أبين فى وضوح أنك فى أحرج المواقف وأدقها وأنك فى خطر يكاد يكون محققاً. لهذا فإنى أرجو منك رجاء ملحًّا أن تفضى إلى فى صراحة بقصتك مع تلك السيدة التى أنت اليوم متهم بقتلها، فقد أستطيع من خلال القصة أن أجد لك مخرجاً من هذا المأزق الحرج.

وعاد مستر ما يهيرن فسعل مرة أخرى، وهو يرشق موكله بنظرات حداد نفاذة عسى أن يستشف الحقيقة من بعض حركاته، ولم يتردد ليونارد فول فقال:

– إنى أعرف هذا فقد ظللت تردده على مسمعى، ولكنى فى الواقع لا أزال غير مصدق أننى متهم بالقتل؟ يا للسماء! إنك تحسب أننى مذنب ولكنىأقسم لك أنى لست مذنباً، وإنى لأعرف أن الظلام محيط بى، وأنى غارق فى ليل مدلهم، ليس فيه بصيص. إننى أشبه بإنسان وقع فى فخ أحكم نصبه وأطبق عليه فلا يجد لنفسه مخرجاً.. ولنبدأ فى القصة التى تريدها منى: كنت ذات يوم فى شارع أكسفورد، ووقعت أنظارى على سيدة عجوز تعبر الطريق

وهى تحمل بعض اللفائف، وسقطت منها هذه اللفائف وهى فى منتصف الشارع، وحاولت أن تستردها، ولكن سيارة أوتوبيس أقبلت فهرعت السيدة إلى الإفريز خوفاً على حياتها فبادرت أنا من مكانى إلى حيث سقطت اللفائف، وجمعتها ونظفتها مما علق بها من التراب، وسلمتها إليها، وشكرتنى على ما فعلته. وكان هذا أول لقاء، ولم أكن أتوقع أن أراها مرة أخرى، ولكنى التقيت بها فى حفلة عند أحد الأصدقاء، فعرفتنى على الفور، وطلبت من صاحب الحفلة أن يقدمنى إليها، ومكثنا فترة طويلة نتبادل الحديث، ولما همت بمغادرة المكان ألحت على أن أزورها، فوعدتها بالزيارة، ولم يكن فى نيتى أن أزورها حقًّا، ولكنها طلبت منى تحديد يوم الزيارة، فلم يسعنى إلا أن أفعل، وبعد أن خرجت علمت من بعض الحاضرين أنها سيدة غنية شاذة الطباع، وأنها تعيش وحدها فى دارها، وليس معها أحد غير خادمة.

– ولكن خبرنى. لقد استمرت الصداقة بينكما إلى يوم مماتها، وكنت تتردد عليها كثيراً، وأنت شاب فى الثالثة والثلاثين من عمرك، جميل المنظر مغرم بالرياضة، ومحبوب بين أصدقائك ومعارفك، وهى سيدة عجوز، فما الذى ربطك بها مثل هذا الرباط الوثيق ؟

– أنا مدرك ما تقول، ولكنى فى الواقع لا أدرى لذلك سبباً. لقد أظهرت لى هذه السيدة عطفها وحنانها وأنا رجل من الطراز الذى لا يستطيع أن يقول، «لا». وصدقنى أولا إذا قلت لك أنى بعد زيارتى الثالثة أو الرابعة وجدت نفسى منساقاً معها، مدفوعاً

إلى إعزازها. لقد ماتت أمى وأنا صغير وماتت عمتى التى كفلتنى وأنا فى الخامسة عشر من عمرى، ومن المحتمل أن يكون هذا الذى بدا منها هو الذى جذبنى إليها بعد أن حرمت منه فترة طويلة من الزمن.

– أنا مدرك ما تقول، ولكن متى عهدت مس فرنش إليك بتدبير أعمالها ؟

– بعد الزيارة الرابعة، فقد قالت لى إنها لا تفهم كثيراً فى المسائل المالية وتحب أن أتولاها.

– آه، لا تنس أن خادمتها جانيت ماكنزى تقول إن سيدتها كانت قديرة فى هذه الناحية، وقد أكد مدير البنك ذلك عنها.

– هذا ما قالته لى، إن صدقاً وإن كذباً، ولم يكن يسعنى إلا أن أصدقها.

ونظر إليه المحامى نظرة حادة ثم قال له بعد صمت:

– وتوليت إدارة أعمالها وأموالها، ولا تنس أنك فى موقف مالى سيء، وأن أزماتك المالية قد تضطرك إلى استغلال أموالها لفائدتك دون أن تشعر، وفى هذه الحالة قد تنتفى عنك تهمة القتل، لأنك بقتلها، تهدم موردك المالى.

– أنا لا أفهم ما يمكن أن ينفى التهمة أو يثبتها، ولكن الذى أعرفه أنى قمت بعملى فى شرف وذمة وأمانة.

– حسناً، ولكن... ألست تدرك أن مس فرنش قد أوصت بكل أموالها لك.

فهب ليونارد فول من مكانه، وقد بدا عليه الاضطراب وقال:

– يا إلهى! ما هذا الذى تقوله ؟ أتركت لى أموالها ؟

– أتدعى أنك لا تعرف أمر هذه الوصية، فى حين أن الخادمة جانيت قالت إن سيدتها أنبأتها أنها شاورتك فى هذا الموضوع، وأنها أبلغتك عزمها ؟

– إن جانيت كاذبة بلا ريب. إنها تحب سيدتها وكانت دائماً حولها كالكلب الحارس. ولا ريب أنها كانت تمقتنى لأنها كانت تغار منى. سيقولون إننى حملتها على كتابة هذه الوصية، ثم ذهبت فى تلك الليلة المشئومة فى وقت خلا المنزل من كل إنسان و ... يا إلهى! إنه أمر رهيب!

– إنك مخطئ فى ذلك فلم يكن المنزل خالياً، فقد كانت جانيت كما تذكر قد خرجت لتقضى الليلة عند بعض أقاربها، ولكنها عادت فى التاسعة والنصف لتأخذ شيئاً نسيته، فسمعت صوت سيدتها فى غرفة الاستقبال، وصوت رجل يحادثها، ولم تستطع أن تتبين صوت الرجل...

– أتقول فى التاسعة والنصف، إذن فقد نجوت! أتدرك ماذا وراء ذلك؟ فى ذلك نجاتى، فقد عدت إلى منزلى فى تلك الليلة فى التاسعة والثلث، وزوجتى تستطيع أن تشهد على صحة ذلك. لقد تركت مس فرنش بعد التاسعة بخمس دقائق، ووصلت إلى منزلى فى التاسعة والثلث، وكانت زوجتى هناك تنتظرنى. شكراً لله! وليبارك فى جانيت التى حددت هذا الوقت.

– هل رآك أحد وأنت تغادر منزل مس فرنش، أو حين وصلت إلى منزلك ؟

– أظن.. كلا، لا أتذكر أنى التقيت بأحد. وأظن أنك ستسأل رومين، زوجتى ؟

– طبعاً، هل أنت تحب زوجتك وهى تحبك ؟

– إنى أهيم بحبها، وهى مخلصة إلى وتحبنى كل الحب.

– وهل كانت مس فرنش تعلم أنك متزوج ؟

– نعم.

– ومع ذلك فإنك لم تقدم زوجتك إليها ؟ أليس هذا غريباً ؟

– هذا.. صحيح. والواقع أن مس فرنش فهمت – من حيث لا أدرى – أن علاقتى مع زوجتى ليست طيبة، فتركتها على هذا الظن. لم تكن مس فرنش تفكر فى الزواج منى، فهناك أربعون عاماً بين عمرينا، ولكنها تفكر فى أن تتخذنى ولدها. وهذا هو كل شىء فى قصتى معها.

* * *

وفتح باب مسكن ليونارد فول، وأرشدته خادمة إلى غرفة الصالون، وما كاد المحامى يدير أنظاره فى أنحاء الغرفة حتى شعر بوقع أقدام وراءه، فدار على عقبيه ورأى قبالته امرأة تقول له:

– مستر ما يهيرن؟ أنت محامى زوجى؟ تفضل بالجلوس.

وأدرك من لهجتها أنها أجنبية وليست إنجليزية، فقال وهو يتوجس خيفة من هذه السيدة لسبب لا يدريه:

– والآن يا سيدتى، يجب ألا تنزعجى..

ولكنه توقف عن إتمام جملته، فقد كانت بادية الهدوء، ولا أثر هناك للانزعاج. وقالت له رومين:

– يحسن بك أولا يا سيدى أن تقص على كل شىء، إنى أريد أن أقف على كل شىء.. حتى أسوأ ما يمكن أن ينتظر. وقص عليها مستر ما يهيرن حديثه مع زوجها حتى إذا أتم الحديث قالت:

– فهمت. إنه يريد أن أقول إنه حضر إلى المنزل فى التاسعة والثلث، وهل شهادتى تلك تكون سبباً فى إطلاق سراحه؟ وهل هناك من يؤيد شهادتى؟

– ليس هناك من يؤيد شهادتك، وأحسب أن شهادتك تكفى، ومن المرجح أنهم يأخذون بها. إنى أقدر موقفك، وخاصة وأنت تحبين زوجك، وتخلصين له فى حبك..

– أقال لك إنى أحبه، وإنى مخلصة له فى حبى؟ يا لغباء الرجال! يا لسخافتهم! أحب أن تعلم يا سيدى أنى أمقته، أمقته من صميم قلبى، أتمنى أن أراه مشنوقاً. لنفرض أنى قلت لك إنه لم يحضر فى التاسعة والثلث بل حضر فى العاشرة والثلث، ولنفرض أنى قلت لك إنه كان منذ عرف أن هذه السيدة موسرة أعد العدة لقتلها، وأنه قتلها فعلا، وأنه جاء إلى واعترف بجرمه، وكانت آثار الدماء على ثيابه؟ لنفرض أنى قلت هذا فماذا يكون الحال؟ إن هذا ما سأقوله فى المحكمة يا سيدى.

– لن يسمح لك بإعطاء شهادة ضد زوجك.

– إنه ليس زوجى. كنت ممثلة فى فيينا، وزوجى حى ولكنه فى مستشفى الأمراض العقلية، ولهذا لم نستطع أن نتزوج، وإنى لسعيدة بذلك، بل إنى سعيدة أن حياته أصبحت معلقة بخيط أمسك أنا به. ولا تسألنى عن سبب كراهيتى له، ومقتى إياه، فلن أخبرك بشىء ألبتة.

فوقف المحامى وقال:

– أحسب أن لا فائدة من الإطالة فى الحديث معك.

– خبرنى أولا. هل كنت عند حضورك تعتقد فى براءته؟

– ولا أزال إلى الآن أعتقد فى براءته.

* * *

وتحدد موعد محاكمة المتهم ليونارد فول، وكاد مستر ما يهيرن يجن، لأن الأدلة كلها أطبقت حول عنق موكله حتى أصبحت إدانته أمراً مؤكداً لا مفر منه. لقد كان عظيم الأمل فى شهادة رومين، ولكنها لأسباب لا يعرفها وجدها تحمل للمتهم غلا كامناً رهيباً.

وفى اليوم السابق للمحاكمة وردت إليه رسالة مكتوبة بلغة ركيكة من سيدة تقول له إنها تملك الدليل على كذب تلك الأجنبية الملعونة فى شهادتها التى أدلت بها إلى البوليس والتى ستكررها فى المحكمة، وأنها تستطيع أن تقدم له هذا الدليل

مقابل مائتى جنيه إذا أراد إنقاذ هذا الفتى المسكين. وذكرت له عنوانها.

ولم يتردد المحامى فى الذهاب إلى العنوان المذكور فى الرسالة، وكان مسكناً ينم عن الفاقة، ووجد فيه مقعداً جلس عليه. بينما جلست المرأة قبالته تساومه. وكان فى وجهها تشويه مخيف تخفيه بنوع من المناديل الكبيرة، وقالت له إن لديها رسالة كتبتها روميين، وهى كافية للدلالة على أن كل أقوالها أكاذيب وافتراءات. وتم الاتفاق على أن تأخذ عشرين جنيهاً فقدمت إليه الرسالة وهى مكتوبة بخط روميين، وقد ذكرت له هذه المرأة المشوهة الوجه أنها كانت على علاقة غرامية برجل، فجاءت هذه الأجنبية الملعونة واختطفته منها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذا الرجل صب على وجهها ماء النار فأحدث فيه هذاالتشويه الذى يراه، وإنها منذ ذلك اليوم تتتبع أخبارها يوماً بعد يوم، إنه الرجل الذى تحبه روميين، والذى من أجله أصبحت تمقت ليونارد قول المتهم المسكين.

وعاد مستر ما يهيرن إلى داره، وهو يرى بصيصاً من الأمل وسط هذه الظلمة الحالكة.

وانعقدت المحكمة فى اليوم التالى وتقدمت روميين بشهادتها، حتى إذا أتمت حديثها، وبدا للعيان أن المتهم مقضى عليه بالموت، وقف الدفاع وقال إن هذه الشاهدة كاذبة فى أقوالها، وأنها فى العاشرة والثلث، وهو الوقت الذى ذكرت أن المتهم عاد فيه إلى المنزل، لم تكن بالمنزل بل كانت مع عشيقها فى ملهى معين

وأنها ترمى من وراء هذه الشهادة الكاذبة أن تقضى عامدة على المتهم. وهمت الشاهدة بالاعتراض على هذه الأقوال، فأخرج محامى الدفاع رسالة من جيبه وقال إنه سيقرؤها على المحكمة:

«حبيبى ماكس، لقد أسلمه القدر إلى يدى. لقد قبض عليه بتهمة القتل. نعم قتل امرأة عجوزاً. ويا للسخرية! ليونارد الذى لا يستطيع أن يقتل ذبابة!! وشاء القدر أخيراً أن أنتقم لنفسى منه. سأقول فى المحكمة إنه عاد وعلى ثيابه بقع من الدماء، وأنه اعترف لى بقتل هذه السيدة. وسأذكر كل الأكاذيب التى ستذهب به إلى المشنقة، وسيعلم أن رومين هى التى أرسلته إلى حتفه، وبعد ذلك.. السعادة أيها الحبيب.. السعادة أخيراً».

وانهارت أعصاب الشاهدة، واعترفت أن شهادتها كاذبة، وأنه فعلا عاد فى التاسعة والثلث، ومن ثم انهارت القضية كلها، وأصدر المحلفون حكمهم بعدم إدانة المتهم، وأصدر القاضى حكمه بالبراءة.

بيد أن أنظار المحامى ما يهيرن كانت قد التفتت إلى حركة يد الشاهدة روميين وهى تلقى بشهادتها وأيقن فى غموض أنه رأى هذه الحركة العجيبة من امرأة أخرى غيرها. فمن تكون تلك المرأة؟ وظل يفكر فى هذا الأمر وهو يعجب. وما كاد يحل المساء حتى أيقن أن هذه الحركة (اللازمة) قد رآها تصدر من يد المرأة المشوهة الوجه التى سلمته الرسالة.

وهرع إلى رومين، وانفرد بها، وذكر لها ما هجس فى ضميره، فابتسمت وقالت:

– إذن فقد خمنت. نعم أنا كنت تلك المرأة. أما تشويه الوجه فلا تنس أنى ممثلة أجيد التنكر، وكان الضوء فى تلك الغرفة ضعيفاً لا يمكنك من الفحص.

– ولكن لماذا فعلت كل ذلك؟ ألم تكن شهادتك تكفى منذ البداية !

– كلا يا صاحبى. كان المحلفون سيقولون إنى ألقيت شهادتى بدافع الحب، وإنى ربما أكون قد كذبت من أجل إنقاذ من أحب. إنى أعرف سيكولوجية الجمهور ولهذا أردت أن تنتزع الشهادة منى انتزاعاً، وأن أرغم إرغاماً على الأدلاء بالشهادة التى تنقذه.

– والرسالة ؟

– كان من السهل أن أكتبها وأعدها.

– وماكس ؟

– لا وجود له يا صاحبى.

– لا أزال أعتقد أنه كان فى الإمكان إنقاذه بالطريقة العادية.

– لم يكن فى استطاعتى أن أجازف هذه المجازفة. إنك كنت موقناً من براءته..

– وأنت ؟ إنك كنت مثلى مؤمنة ببراءته.

– يا عزيزى المحامى. إنك لا ترى شيئاً أبداً... إننى كنت أعرف طوال الوقت أنه القاتل !!

• خورخي كامبوس

الغـريق

خبط وصاح، ثم تحرك وذرع بيديه، شعر بنفسه يغوص ثلاث مرات، ويطفو ثلاث مرات أخرى، وراح يضرب بساعديه فى فوضى، ثم ترك نفسه مدفوعاً حتى أمكنه أن يمسك أخيراً بلوح عائم فتشبث به، تارة يركب عليه وأخرى يضطجع، والأمواج المقتربة تهزه، ترفعه برهة، ثم تتقهقر لكى تخلى مكانها لأمواج أخرى تجيء بعدها، تدفعها أمواج تالية، وتتكرر اللعبة نفسها، وحوله بحر، بحر فحسب، وكرس الغريق كل وجوده ليمسك باللوح فى شراسة، وليبتلع جرعات من ماء مالح، وليتأمل...

كان يفكر، لا شيء مما يمكن أن يتذكره وجد فى العالم يوماً، منازل.. وخمور.. وترام.. وفتيات.. وأرض، إنما كانت كلها وليدة خياله، فليس العالم غير غمر يطفو فوقه، وليست السماء كما تبدو له غير انعكاس لمعبر أمواج تعود لتضع نفسها من حيث جاءت، كممثلى الكومبارس على المسرح، يتظاهرون فى عرض طويل خلف الكواليس، لكى يظهروا مرة، ومرة أخرى فى نفس الفصل!

كان الماء يضربه بغير انقطاع، وكان يحاول أن يحسب، كم من الزمن تتأخر كل موجة حين تبتعد وترتد بسرعة لتعود ومعها حفنة ماء، فتقذف فى معدته قليلا من الملح. لكن كان من المستحيل عليه أن يتبين الأمواج الماكرة!

واستمر على هذا المنوال يوماً، فيومين، فثلاثة، ومع الزمن أصبح أقل تفكيراً، وقد تمدد على اللوح تاركاً ساقيه وذراعيه يقعان خارجه، كأنه مصلوب على صليب يونانى الطراز، وكانت معدته تلم جوانبه، ورأسه دائخ ملفوف فى بخار الجوع، لا شىء... لا شىء كان موجوداً فى العالم غيره، وفكر فى كويرة من ورق، قذف بها ذات مرة فى بركة، فكانت تعلو وتهبط وتسير فى حركة دائمة على الأمواج الصغيرة الخضراء والزرقاء، ومع ذلك. كانت فى نفس مكانها، ألا يمكن أن عقله هو الذى يخونه؟ أحقًّا رمى كويرة الورق وتأملها؟ ربما لم تكن هناك أبداً كويرة ولا برك فى أى مكان، وربما كان هو من يرى نفسه صاعداً هابطاً دون أن يتحرك من موضعه !

كان يغفو، فى البدء لثوان قصيرة، وأخيراً لساعات طويلة، وفى مرة وقع من اللوح، فكان عليه أن يستنفد قوى هائلة لا يعرف من أين انتزعها لكى يصل إليه ثانية، وقد وعى جيداً أن ذلك لو حدث مرة أخرى فسيصبح صريع الماء، دون استئناف، ودون إمكانيات التفكير فى الكويرة، ودارت تحت جمجمته دوخة زرقاء مالحة، وأخذته غفوة، ثم انتبه فبدل وضعه بكل عناية، ونظر إلى الأفق الكليل...

كيف ذلك؟ أكان ممكناً؟... نعم.. نعم!، كان فى العالم خشب وقمصان ورجال ونساء. وفجأة استرد وعيه من الكون سريعاً، وبعيداً كان يبدو له رمث صغير، ذو رقعة من قماش ترفرف على سارية، فأعطته البهجة شجاعة، وبدلت ضعفه قوة، فوجه إليه مركبه الساذج

بكلتا يديه وذراعيه. لم يكن الطريق سهلا، وأعتقد أنه إن ضعف فلن يتمكن من إدراكه، أو يصل إليه ميتاً، وكان فى الرمث من يومىء إليه مشجعاً، ويجتهد أيضاً ليختصر الشقة التى تفصل بينهما، حتى تلاقت الخشبتان فى صدمة صماء، فكلتاهما كانت رطبة !

نعم، ليس ثمة أدنى شك، كان الإنسان موجوداً، وكان هناك الحنان والأخوة، واكتشف فى كل الوجوه التى ركزت اهتمامها فيه، على الرغم من أنها عرضت له غامضة ذات ضباب، فرحة فائضة، غامرة، ساحرة، لا يمكن تفسيرها.

تركهم ينزعونه بقوة من تحت إبطيه، عن الجذع الذى كان ملتصقاً به، وتمدد على الألواح الجديدة العريضة، الأقل رطوبة، مستريحاً فى تراخ كامل، دون أن يضيق بمحاولة الحفاظ على توازنه، وألقى غير واع نظرة إلى الرجال، وتبسم في ضعف وتغافى، ولكنه استطاع أن يسمع بين الضباب صوتاً مهتزاً مرحاً، مجللا بالتأثر، يقول:

– بعثه لنا القدر!، لم يرد أن أكون أنا الضحية، عندما خرج فى قرعتى الأقصر المشئوم، وطلبت منكم معروفاً، أن تنتظروا عشر دقائق، تذكرت أن الله بعث كبشاً إلى إبراهيم، ولم يترك أمته الخاطئة تهلك فى الصحراء، فشعرت بأنه لن يتخلى عنى فى هذه المرة !(١).

(١) يشير إلى تقليد كان متبعاً بين البحارة فى القديم: إذ نفد زادهم فى عرض البحر اقترعوا على من يأكلونه من بينهم.

وبعد أن بدل لهجته بأخرى أكثر حزناً أضاف «ساندرس» بائع التوراة السمين، فى نبرة آسفة:

– تباركت العناية الإلهية، وقد جاءتنا بالغريق الذى نحتاج إليه... كان سيموت على أى حال !

[قصة إسبانية]

• ألبرتو مورافيا

الآلـــة Automata

فى زيه الكامل نظر «جيدو» إلى المرآة وكالعادة غمره شعور من التعاسة، كان يرتدى ملابس جديدة فحسب، ومن أحسن الأنواع، صديريًا رياضى الشكل، بنطلوناً من الصوف الأشهب، ربطة عنق ذات خطوات زاهية، جوارب من الصوف الأحمر، حذاء من الشمواه، لكنه لم يكن أنيقاً على أى حال، كان يبدو كما لو كان دمية فى عارضة متجر كبير!

ثم غادر حجرة نومه، فوضاها كانت تثيره، وذهب إلى الصالون، هنا كل شيء نظيف، منظم لامع، ومن ثم عاوده الهدوء من جديد، ولو أنه فى ذلك الصباح منذ اللحظة التى استيقظ فيها، كانت تزعجه شبهة أنه نسى شيئاً..

موعد..

مكالمة هاتفية..

سداد دين...

حفلة..؟

وهز رأسه أخيراً، ثم اقترب من الحاكى ماركة أمريكية تعمل آليًا، الضغط على زر خارجى يجعل الذراع مع الإبرة يتحرك وحده، يمتد ثم يهبط، ويستقر على حافة الأسطوانة، وأخذ «جيدو» لا أراديًا، أسطوانة موسيقى خفيفة، وضعها ثم ضغط على الزر، حينئذ

حدث شيء غير متوقع، ارتفع الذراع ثم تحرك ولكنه لم يهبط، على العكس ابتعد بحركة يمكن أن يقال إنها مقصودة، وذهب أخيراً ليستقر، لا على حافة الأسطوانة وإنما في وسطها، وكان نشاز حاد، ارتد الذراع بعده إلى الخلف، ثم ارتفع من جديد، ومع صوت كفرقعة الأصابع عاد إلى مستقره ليستريح!

نزع «جيدو» الأسطوانة وفحصها على ضوء النافذة، كانت تلفانة، وفي مواضع محددة منها رأى خدوشا عميقة، لأول مرة تتوقف الآلية، وفي حيرة وضع أسطوانة أخرى، لكن الذراع في هذه المرة ارتفع ثم انخفض عادياً، بدون أخطاء أزيد، وقد سأل «جيدو» نفسه وهو يستمع إلى الموسيقى: ماذا وراء موقف الحاكي الغريب، لكنه لحظ أن التفسير الفني المحتمل لن يقنعه..

في تلك اللحظة دخلت زوجه..

كانت تمسك بيديها ولديها، «بيرو» و «لوسيا»، كلاهما أصغر من خمس سنوات، ولهما وجهان ناعمان رقيقان وبخاصة «بيرو» الذي بدا كما لو كان صورة شمسية من جيدو والده، عندما كان في نفس عمره، وقالت لهما هيا.. اذهبا فأعطيا والدكما قبلة، وبقيت في منتصف الصالة، بينما الصغيران، مطيعين محترمين، جريا ليقفزا على ركبتي والدهما فاحتضنهما بدوره، وهما على صدره بين ذراعيه، تطلع من فوق رأسيهما المدورين إلى زوجه، ولاحظ، كما لو كان يراها لأول مرة، أنها طويلة نحيفة مسطحة جافة فارغة بفعل الولادة، فقدت كل سحرها الأنوثي، ولاحظ أيضاً أنها تضع نظارة، وأن أنفها ضارب إلى الحمرة شيئاً، وترتدي فستاناً أزرق واسعاً، وبلوزة من الصوف الأزرق

أكثر غمقاً، وبدا له فجاءة أن كل هذه التفصيلات لا بد أن يكون لها معناها الذاتى، شيء هكذا كتفصيلات الألغاز، التى تفسر عادة فى كلمة واحدة، لكن زوجه لم تمهله لكى يجدها، فنادته قائلة:

– هيا بنا.. هيا، لقد تأخرنا، وإذا انتظرنا أطول فقد نتعرض لخطر وجود الشوارع مليئة بالعربات!

ورد «جيدو»: هيا، وتابع زوجه، بينما عادت هى فأمسكت بذراعى ولديها من جديد.

كان سكنهما يقع فى الطابق الأول من عمارة جديدة فى شارع «باديولى» ويطل باب مدخله على حديقة صغيرة. ذات طريق مسفلتة، ومربعات مفروشة بالخزامى وأشجار مقصوصة، مدورة الشكل أو مثلثة، وعبرت الأسرة الحديقة، ثم خرجت إلى شارع ضيق ذى عمارات حديثة على جانبيه، غاص بالسيارات على امتداد طواريه، وسأل «جيدو» نفسه من جديد: أمن الممكن أن ينسى ما حدث هذا الصباح؟، وبينما رأسه مليء بهذه الأفكار، أركب زوجه وطفليه السيارة، ثم أدار جهازها فتحركت، وهبطت مسرعة فى شارع «فلامينيا» عبر الجسر، وبدأ يجرى بها على امتداد نهر «التيبر» وهدف الرحلة بحيرة «ألبانو».

كان اليوم أحداً، يوم جميل كما لاحظت الزوجة، التى كانت تجلس فى الخلف إلى جانب البنت، وقد أسفت.. أسفت فى عمق، لأنهما لن يستطيعا تناول غداءهما على الحشائش، فقد أمطرت السماء من قريب، ولا تزال الأرض رخوة بعد، ولم يجب «جيدو» على هذا بشيء، فاستمرت هى فى حديثها العادى، توجهه

بمهارة، مرة إلى الزوج، وأخرى إلى الأطفال بينما هو من جانبه ركز كل اهتمامه فى الشارع، الذى كان متضخماً كما هو دائماً وبأناس يتميزون اليوم بأرديتهم الأنيقة، مما يحتاج إلى تعقل أكثر فى القيادة، ومهارة فوق ما هو معتاد.

وبعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة فى شارع «أنتجوا» تابعت سيرها فى شارع «نوفيا»، وكان «جيدو» يسير بسرعة عادية، غير عالية، حتى ولو بدا الشارع أمامه خاليا، وعيناه خلال ذلك كله، تلاحظان عديداً من الأشياء، كانت تبدو مسلية، ولكن معناها على الدوام كان يفلت منه: بريق النيكل لعربة سوداء تتبعه، البياض الجميل المتناثر من صهريج أسطوانى، نصف مختف بين أشجار ربيعية منسقة، الصفاء المنعكس من بعض البيوت، اللون الفضى لطائرة تهبط أفقيًّا عبر السماء، لكى تستقر على أرض المطار فى «شيابينو»، البريق الفجائى لنافذة كان يسقط عليها شعاع من شمس، طلاء الإشارات المرسوم فوق جذوع الأشجار على امتداد الشارع، كل هذه الأشياء البيضاء لامعة مشعة، تتناقض على نحو عنيف مع مجموعة كبرى من السحب الداكنة، تغزو السماء وتهدد بالقضاء على جمال اليوم، وتتناقض أيضاً مع الحقول الواسعة، غضة فى خضرة فاتحة أقرب إلى لون اللبن، وتكاد تصبح نشازاً فى عمق قاتم عاصف !

ومرة أخرى، سأل «جيدو» نفسه: ماذا يمكن أن يكون وراء هذه المتناقصات؟ لكنه لم يجد شيئاً، على الرغم من أنه متأكد أن ثمة شيئاً ما !

كانت الزوجة خلفه تتحدث إلى البنت، بينما جلس الابن بركبتيه على المقعد إلى جانبه، وشارك فى الحديث بين أمه وأخته، وكان صوت الطفلين طريًا رقيقاً وهما يسألان، وصوت الأم هادئاً رزين وهى ترد، يخفى على التأكيد أيضاً معنى ما، لكنه بالنسبة إليه، كان ككل الأشياء الأخرى، التى كان يلحظها شيئاً فشيئاً، لم يستطع أن يمسك به، على الرغم من أنه كان مقتنعاً بوجوده!

ثم سكت الطفلان، وفيما تلا ذلك من سكوت لاحظت الزوجة صمت «جيدو»، فسألته:

– ماذا حدث لك.. هل أنت قرفان ؟

– لا.. لست قرفانا.

– ولست منشرحاً على أى حال.

– متوسط.. مزاجى العادى.

– بالضبط، ذلك ما أقدره فيك أكثر، مزاجك المعتدل كما تقول، ولكنى أشعر أنك قرفان!

– ولماذا تحبين مزاجى المعتدل ؟.

– هكذا.. إنه يجعلنى أشعر بالأمن، أحس أننى فى رفقة رجل يمكن أن أضع فيه ثقتى كاملة.

– هذا الرجل.. هو أنا ؟

– نعم، أنت.

كانت تتحدث بهدوء فى موضوعية كما لو كانت شخصاً ثالثاً: أثق فيك لأنى أعلم أنك زوج طيب، وأب طيب، أعلم أننى معك

لا يمكن أن أتوقع مفاجآت ما، فأنت دائماً تعمل ما هو حق وعدل، وهذه الثقة تجعلنى سعيدة.

– هل أنت سعيدة معى ؟

– نعم..

وبدت كأنها تفكر لحظة مع تردد:

– نعم.. إننى سعيدة، يمكن أن أقولها بلا زيادة.. إننى سعيدة، لقد أعطيتنى كل ما أحب.. أسرة وأطفالا وحياة مرحة مطمئنة.. ألا يسرك أننى سعيدة معك ؟

وانحنت الزوجة، وبدأت تداعبه برفق فى حنان على مؤخر عنقه، ورد «جيدو» :

– نعم يسرنى..

فى تلك اللحظة كانت السيارة قد تركت شارع «نوفيا» إلى شارع «لوس لاجوس» مسرعة بين حقول خضراء، ترى فوقها هنا وهناك سحباً بيضاء صغيرة مرتعشة محمرة من ازدهار الأشجار المثمرة، فشجرة مصفرة إلى جانب بيت أزرق، ثم بعض أشجار بابلية، محملة الأغصان بزهور حمراء فى لون النبيذ.

وقال «جيدو»:

– لم أكن قرفانا، وإنما كنت أفكر فحسب، فى شىء حدث منذ قليل..

– أى شىء ؟

قص لها حكاية الأسطوانة، وعطل الحاكى الآلى، ثم أنهى حديثه: والآن.. فإن الأسطوانة تلفانة، لكنى لم أستطع بصفة خاصة أن أقنع نفسى، لماذا توقف الحاكى؟..

وقالت الزوجة منكتة:

بعض الآلات فيما يبدو، تتعب من كونها آلات، وتريد أن تظهر أنها ليست كذلك.

– نعم.. ربما كان الأمر من هذا القبيل!

كان الطفل ما يزال جالساً القرفصاء فى المقعد إلى جانب «جيدو» وسأل أمه فجأة عما إذا كانوا سيأكلون فراولة فى هذا اليوم، فردت عليه: لا توجد فراولة فى هذا الفصل من العام، الفراولة فاكهة والربيع على العكس من ذلك، هو فصل الزهور، أمر تستطيع أن تقتنع به إذا تطلعت إلى الحقول. استمع «جيدو» برهه لشرح زوجه، ثم قام بمحاولة أكثر ضعفاً وأخيرة، ليتذكر ما كان مقتنعا بوجوب نسيانه هذا الصباح، لكنه لم يتذكر شيئاً ربما كان موعد عمل لغد، الاثنين، يتصل بمهنته، على أى حال فى مكتبه دون كل شىء فى المفكرة، وسيكون من السهل التعرف عليه.

ثم وصل إلى الشارع الذى يمتد حول بحيرة «ألبانو»، لم يكن من الممكن رؤيتها بعد، لأنها كانت مختفية بين حدائق عزب كثيرة، وفى المنحنى بدأت تظهر قليلا قليلا ملحقاتها المبعثرة، مغطاة بسطح كثيف من الخضرة الغامقة، ثم تحت إلى أسفل، كما لو كان فى عمق قمع، كانت البحيرة ساكنة مظلمة، بينما ضفافها العالية والسماء المسحبة، تنعكسان عليها فى ظلال متباينة.

نظر إليها «جيدو» فى احتقار، ثم عاوده الشعور من جديد بأن معنى ما يختفى وراء هذه التفصيلات العديدة المتكررة، وفى نفس اللحظة كان يبدأ الطريق صاعداً، فغير السرعة من الرابعة إلى الثالثة، وفى قمة المطلع كان يرى روشنا معلقاً فى السماء، ويظن أن وراءه هوة يبلغ طولها عدة مئات من الأمتار.

ومر «جيدو» فجاءة بإحساس من يخرج من كهف إلى سطح الأرض، إحساس من يخرج من هواء ناعم ساكن إلى آخر صاف منعش، وعرض له إلى جانب ذلك تفكير دقيق، أن يدفع سيارته بكل سرعتها فى ذلك الفراغ الذى يتنهد هناك بعيداً وراء المطلع، وأن يرمى بنفسه فى البحيرة مع زوجه وابنيه، سوف تقفز السيارة مائة متر أو مائتين، وتسقط مباشرة فى الماء، ومعها سيكون الموت فوريًا !

وتساءل «جيدو»: أبغضه لأسرته هو الذى أوحى إليه بمثل هذا التفكير؟، لكنه ما لبث أن لحظ أن الأمر ليس كذلك بل بدا له على العكس، إنه لم يحبهم فى حياته يوماً كما يحبهم الآن، فى اللحظة التى يرغب فيها أن يقضى عليهم، ولكن.. أكان ذلك تفكيراً حقًا، أم أنها محاولة؟.. محاولة لا تكاد تقاوم كحلو مميت متشبث مفترس، يشبه ما توحى به تقوى لا تريد أن تظل عاجزة!

وانحرفت السيارة نحو الشمال حتى احتكت بحافة الطريق، صاعدة فى سرعة نحو الروشن، وما إن تجاوزت النقطة الأكثر ارتفاعا، حتى وجد «جيدو» نفسه أمام حقل صغير لم يكن يتوقعه، وأنه قد ترك الهوة وراءه وأن الفرصة قد فاتت، فالوقوع فى الفراغ

شيء طبيعي، أما الانحراف للوقوع فيه فجريمة، وتوقف «جيدو»، وضع فرامل اليد، وظل عاريًا من أى شعور محدد، كل ما هنالك كان يبدو له، أنه ترك الهواء المنعش ليواجه الهواء الناعم الساكن، وقالت الزوجة وهى تهبط من العربة، لقد صنعت طيباً عندما توقفت هنا هيا نلقى نظرة على سطح البحيرة.

عندما كان الأربعة على حافة الروشن منحنين يتأملون البحيرة، تذكر «جيدو» فجاءة كل ما كان قد نسى من قبل.. فى هذا الأحد يقع عيد زواجه، ولقد تناقش حوله مع زوجه فى الليلة السابقة، بعد أن نام الطفلان، ثم تقررت هذه الرحلة خصيصاً.. احتفالا بهذا اليوم !

[قصة إيطالية]